مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيْمِ لِلْعِتْرَةِ الطَّاهِرَة

إسْتِرَاتِيْجِيَتَا التَّقَابُلِ وَالتَّسَانُدِ فِي دُعَاءِ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِي لِلإِمَامِ زَيْنِ العَابِدِيْنَ عليه السلام

عهود عبد الواحد عبد الصاحب[1]
١ جامعة بغداد / كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة - ابن رشد / قسم اللُّغة العربيّة، العراق؛
uhoudalaqyly6670@gmail.com
دكتوراه في اللُّغة العربية / استاذ

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢/ ٤/ ٢٠٢٣	٢/ ٥/ ٢٠٢٣	٣٠/ ٦/ ٢٠٢٣

المجلــد (١٤) العــدد (٢٦)
ذو الحجة ١٤٤٤هـ . حزيران ٢٠٢٣م
DOI: 10.55568/t.v14i26.63-98

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:
للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لغةٌ متميِّزةٌ بعلوِّ بلاغتِهَا وعظيمِ تنوُّعِ أساليبِهَا، فنجدُ فيها ألواناً من المهيمنات الأسلوبيَّة التي تنمُّ بتمكُّن من ناصية اللُّغة، ومعجم أدبي عزَّ نظيره عند البلغاء، وقدرة كبيرة في التحكّم بأنواع الأنساق البلاغية التي تستوعبه ؛ لذا اشتهر هذا الإمام الجليل بأسلوب بلاغي في خطابه الأدبي جَعَلَ كلامه معروفاً، ومتميّزاً من غيره ولاسِيَّمَا في أدعيته ومناجاته للخالق العظيم سبحانه، فقد كانت هذه الأدعية في معظمها رسائل مفتوحة، إلى الناس كافَّة، بثّ الإمامُ عليه السلام لهم فيها شجونَهُ وأهدافَهُ ومراميه من ورائها، ومن أهمها التربية والدعوة إلى الإصلاح وتهذيب النفس وتربيتها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بحدود الله تعالى واستلهام قيم الدين وتجسيد مضامينه بشكل عمليّ وتطبيق مواعظه وإرشاداته وجعلها منهج حياة.
وقد وجدتُ الدعاءَ ميدانا خصبا لتطبيق إستراتيجيتي التقابل والتساند، فالأولى ـ التقابل ـ تُعْنَى بلغة التضادّ وأثرها في إثراء الدلالة وما تشحنُهُ المتقابلات من إيحاءات تكشف عن خبايا النصوص وقد بانت بشكل متميِّز فيه وكشفتْ عن سعي الإمام عليه السلام من خلاله للتأدّب في خطاب الله تعالى وتأكيد وحدانيته وطاعته، وتصفية النفس من خلال السعي للّجوء إليه سبحانه في الأحوال كلّها، وتجلَّى ذلك في إبراز ثنائيات المعاني ومن أهمّها : (صِغَر العبد إزاء عَظَمَة الخالق)، و(نَقْص المخلوق وكَمَال الخالق) و(بُخْل المخلوق وعظيم عطاءِ الخالق) والإبانة عن بنى التقابل المتعدّدة.
والأخرى : هي التساند وأعني بها ما يسندُ التأويلَ، ويعضّده ممَّا يتأتّى من جميع العلوم اللّغوية والبلاغية وغيرها ويكون مؤثِّرا للظفر بالمعنى المراد بأجمل صورة.

الكلمات المفتاحية : دعاء أبي حمزة الثمالي، وإسترتيجية التقابل، وإسترتيجية التساند .

Strategies of Contrast and Cohesion in Abi Hamza Al-Thamali Supplication of Imam Zain Al`Abadin

Ahud `Abidalwahid `Abidalsahib[1]

1 University of Baghdad / College of Humanities / Ibn Rushd / Dept of Arabic،Iraq ;

uhoudalaqyly6670@gmail.com

PhD in Arabic Language / Professor

Received:	Accepted:	Published:
2/4/2023	2/5/2023	30/6/2023

DOI: 10.55568/t.v14i26.63-98

Volume (**14**) Issue (**26**)

Dhu al-Hijjah 1444 H June 2023

Abstract:

Imam Zein Al-Abidin Ali bin Al-Hussein has a language with a high eloquence and great style diversity . As there are many stylistic devices that demonstrate a mastery over language as a literary dictionary unparalleled among rhetoricians , and a great ability to control the types of rhetorical patterns . Therefore, the immaculate Imam became famous for his rhetorical style in his literary speech that set his speech known and distinguished from others, especially in his supplications and invocation to Allah the Great Creator, Glory be to Him. Most of these supplications were open letters, to all people, in which the Imam (peace be upon him) conveyed to them his concerns, goals, and intents . There are education, calling for reform, refining the soul, enjoining good and forbidding evil, adhering to the limits of God Almighty, drawing inspiration from and so forth.

The researcher finds supplication as a fertile field for applying the two strategies of contrast and support. The former is concerned with the language of opposition and its effect in enriching the meaning and the revelations manifest the Imam's endeavor and style in addressing the Creator . This was evident in highlighting the dual meanings : tiny entity in the face of the greatness of the Creator, the imperfection of the creature and the perfection of the Creator. Yet the latter is support to buttress the interpretation with all the linguistic, rhetorical and other sciences to achieve the intended meaning in the most beautiful way.

Keywords: Abu Hamza Al-Thumali's supplication, confrontation strategy, and support strategy.

المُقَدِّمَةُ:

للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لغة متميّزة بروعة بلاغتها وعظيم تنوع أساليبها، فنجد فيها ألوانا من المهيمنات الأسلوبية التي تنمّ بتمكُّن من ناصية اللُّغة،ومعجم أدبي عزَّ نظيره عند البلغاء، وقدرة كبيرة في التحكّم بأنواع الأنساق البلاغية التي تستوعبه ؛ لذا اشتهر هذا الإمام الجليل بأسلوب بلاغي في خطابه الأدبي جعل كلامه معروفاً ومتميّزاً من غيره، ولاسِيَّما في أدعيته ومناجاته للخالق العظيم سبحانه، فقد كانت هذه الأدعية في معظمها رسائل مفتوحة، إلى الناس كافّة، بثّ الإمام عليه السلام لهم فيها شجونه وأهدافه ومراميه من ورائها ومن أهمّها التربية والدعوة إلى الإصلاح وتهذيب النفس وتربيتها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والالتزام بحدود الله تعالى واستلهام قيم الدين وتجسيد مضامينه بشكل عملي وتطبيق مواعظه وإرشاداته وجعلها منهج حياة،ومن هذه الأدعية دعاؤه الذي علَّمه لأبي حمزة الثمالي، وقد اشتهر هذا الدعاء كثيراً ؛ لما احتواه من مضامين وما اشتمل عليه من مميزات كثيرة .

أمَّا إسترتيجيتا التقابل والتساند فهما مجالان بلاغيان واسعان للتأويل في البلاغة الجديدة نادى بهما د. محمد بازي، وعمل بهما وشرح ماهيتيهما الأستاذ مصطفى رجوان في كتابه (في بلاغة الخطاب من بديع اللفظ إلى بديع التأويل) وإن كنت اختلف معهما في قضية جعل التقابل معنى عامًا غير مقتصر على معنى التضادّ، إنَّما يعتني بالعلاقات المركبيّة، وليس له معنى قار ؛ لأنَّه بذلك يفقد ماهيَّته ويدخل فيه ما ليس منه ويصعب حصره.

وأتفق معهما في معنى التساند الذي مفاده ما يسند التأويل، أي التداخل والتطالب بين جميع العلوم اللغوية وغيرها للظفر بالمعنى المراد بأجمل صورة. وسأفصل ذلك في التمهيد إن شاء الله تعالى .

وقد جعلت البحث في تمهيد وثلاثة مباحث :

أمَّا التمهيد : فقد تناولت فيه أمرين :

ـ معنى إستراتيجيتي التقابل والتساند ورأيي فيهما وما سأطبقه منهما.

ـ غنى دعاء أبي حمزة الثمالي وإمكانية تطبيق الإستراتيجيتين عليه.

وتناول المبحث الأوّل : إستراتيجية التقابل في دعاء أبي حمزة الثمالي.

وتناول المبحث الثاني : إستراتيجية التساند في دعاء أبي حمزة الثمالي.

أمَّا المبحث الثالث فهو تعاون الإستراتيجيتين في الإبانة عن معاني الدعاء.

وختمت البحث بخاتمة تضمّنت أهم نتائج البحث، تبعتها قائمة بمصادر البحث ومراجعه .

وأدعو الله أن يوفقني للغوص في بحر هذا الدعاء عسى أن أتمكَّنَ من استخراج بعض لآلئه الثمينة من أجل بيان جانب من عظيم تراث أهل البيت ﷺ الذين خُصُّوا بجميل العطايا وبديع المزايا ومنها موفور البلاغة فكانوا بحقٍّ عِدْلَ القران الكريم وصوتَه الناطق،مَنْ تمسَّك بهم نجا، ومن تخلَّف عنهم هلك. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين .

التمهيد أـ معنى إستراتيجيتي التقابل والتساند ورأيي فيهما وما سأطبقه منهما .

إنَّ البلاغة العربية فيها غنًى كبير وعمق في تناول المصطلحات وتطبيقها وإنَّ ما أضرَّ بها ليس المصطلح بما يحمله من معانٍ بل التشعُّب الذي أفقد الكثير من المصطلحات جماليتها نتيجة كثرة التفريعات، والسطحية في تطبيق هذه المصطلحات والتركيز على التطبيق الظاهري من دون الغوص في البحث عن درر المعاني ولاسِيَّما في الفترات المتأخّرة، وقد تنبه العلماء المتقدِّمون إلى أهمية البلاغة واستشفوا معناها الاصطلاحي من خلال المعنى المعجمي .

قال أبو هلال العسكري : ((البلاغة من قولهم بلغ الغاية إذا انتهيت إليها وبلغها غيري ومبلغ شيء منتهاه، والمبالغة في شيء الانتهاء إلى غايته فسُمِّيَت البلاغة بلاغةً ؛ لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسمِّيت البُلْغَةُ بلغةً ؛ لأنك تتبلَّغ بها فتنتهي بك إلى ما فوقها ... ويُقال الدنيا : بلاغ ؛ لأنَّها تؤديك إلى الآخرة))[1]

أمَّا التقابل فأقصد به إيراد المعاني المتضادّة من طريق الجمل سواء أكانت جملة تقابل جملة أم مجموعة جمل لتكوين عبارات متضادّة، ومن طريق المعنى المتقابل للعبارات تتكشّف لنا معانٍ جميلة وردت في النصوص الإبداعية سواء أكانت نصوصا مقدسة قرآنية كريمة أم حديثية شريفة، وقد تكون نصوصا من خطب أو أدعية بلغ مبدعوها من فنِّ القول مبلغا عظيما أو

١ أبو هلال ،الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق. علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤١٩)، ٦.

كانت نصوصا شعرية جمعت المتضادّات للإحاطة بفنون المعاني التي أرادوا التعبير عنها .

وأمّا التساند فأقصد به الأساليب المعضِّدة لمعنى التقابل، وإن كانت غير داخلة فيه وهذه الأساليب بلاغية ولكنّها من فنون البلاغة المتنوعة ولا تقتصر على علم البديع بل تأخذ من فنونه ومن علمي البيان والمعاني كما أنّها لا تقتصر على البلاغة بل تتناول العلوم الأخرى التي ترفد السياق بدلالات توضّح المعنى البلاغي المقصود وتحيط به وتبرزه بأبهى حُلَّة .

وقد أشار إلى المصطلحين قبلي د. محمد بازي في مشروع القارئ البليغ الذي نادى به لكنّه خرج عن المعنى الاصطلاحي للتقابل وأدخل فيه معانيَ جديدة لا تدخل في أصل وضعه[٢] . وجعله صنواً للمعنى البلاغي عامّة، ولم يقصره على التضادّ، وهذا ما لا أريده أنا، فلابدَّ أن أُبْقِيَ على معنى التضادّ وأركِّزَ عليه ؛ لجماليات دلالاته ولأنَّها مقصودة في النصوص البديعة ولاسِيَّما ما دار البحث في إطاره وهو دعاء أبي حمزة الثمالي .

وقد تناول البلاغيون العرب القدامى معاني التضادّ بمصطلحات متنوعة وسأقتصر على الطباق والمقابلة لارتباط بعضهما ببعض ارتباط الجزء بالكلّ ولأنَّهما الأدخل في مصطلح التقابل الذي أريده .

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٨٠هـ) في تعريف (المطابقة) أو (الطباق)، ((وطابقت بين الشيئين: جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما فيسمى هذا المطابق))[٤] وأعاد نقله ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) وزاد عليه قوله : ((وكذلك قال أبو سعيد فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب))[٥].

وَسَمَّى ثعلب (ت٢٩١هـ) الطباق ((مجاورة الأضداد" وقال عنه إنه "ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده))[٦].

وأفرد عبد الله بن المعتز لهذا الفن باباً في كتابه البديع حيث كان الباب الثالث من بين

٢ رجوان ،مصطفى، في بلاغة الخطاب من بديع اللفظ إلى بديع التأويل، تقديم. محمد بازي، ط ٢ (عمَّان ـ الأردن: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠)، ١١.

٣ رجوان، ٥٧.

٤ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق. مهدي المخزومي و ابراهيم السامرّائي، د.ت.، باب القاف والطاء والميم، ٥/ ١٠٩.

٥ المعتز ،عبد الله بن، البديع، تحقيق. اغناطيوس كراتشكوفسكي، د.ط. (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٧٩)، ٣٦.

٦ ثعلب، أحمد بن يحيى، قواعد الشعر، تحقيق. محمد عبد المنعم خفاجي، ط ١ (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٤٨)، ٥٣.

ابـواب الكتـاب الخمسـة [٧] * .

وقـد تحـدَّث عـن المقابلـة قدامـة بـن جعفـر (ت ٣٣٧ هـ)عندمـا تحـدَّث عـن قيمـة الشـعر ومـا يُعليـه فجعـل مـن ضمنهـا حُسْـنَ المقابلـة وَعَرَّفَهَـا فقـال : ((وهـو أنْ يضـعَ الشـاعر معـاني يريـد التوفيـق بـين بعضهـا وبعـض والمخالفـة فيـأتي في الموافـق بـما يوافـق وفي المخالـف بـما يخالـف عـلى الصِّحَّـة أو يشـترط شروطـا ويعـدّد أحـوالًا في أحـد المعنيـين فيجـب أن يـأتي في مـا يوافقـه بمثـل الـذي شرطـه وعـدده وفي مـا يخالـف بضِـدِّ ذلـك))[٨]

واتَّضَحَت أهمية (المطابقة) في قول القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ): ((وأمَّا المطابقة فلها شُعَبٌ خفيَّة وفيها مكامن تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف))[٩].

أمَّـا ابـن وهـب الكاتـب فقـد أشـار إلى المطابقـة والمقابلـة ضمـن مـا يرفـع مـن قيمـة الشـعر الفنية حيـث قـال: ((والـذي يسـمَّى بـه الشـعر فائقـاً ويكـون إذا اجتمع فيـه مستحسـناً رائقاً صحـة المقابلة وحسـن النظـم وجزالـة اللفـظ واعتـدال الـوزن وإصابـة التشـبيه وجـودة التفصيـل، وقلـة التكلـف والمشـاكلة في المطابقـة وأضـداد هـذه كلهـا معيبـة تمجّهـا الآذان وتخـرج عـن وصـف البيـان))[١٠].

قـال السـجلماسي (ت ٧٠٤ هـ): ((المقابلـة هـي ترتيـب الـكلام عـلى مـا يجـب فيعطـى أول الـكلام مـا يليـق بـه أوّلا وآخـره مـا يليـق بـه آخـرا))[١١]

وبعـد أن تبيَّنـت أهميـة المقابلـة في إثـراء دلالـة النصـوص بحسـب آراء البلاغيـين آتي إلى مـا اجترحـه الدكتـور محمـد بـازي مـن منهـج في إسـتراتيجيتي التقابـل والتسـاند ،

فالتقابـل عنـده هـو : ((هـو محـاذاة المعـاني بعضهـا ببعـض والتقريـب بينهـا في الحيـز الذهنـي والتأويـلي عـبر مواجهتهـا ببعضهـا (وجـه لوجـه) لإحـداث تجـاوب مـا أو تفاعـل معـرفي أو دلالي

٧ المعتز، البديع، ٣٦.

٨ بن جعفر، قدامة، نقد الشعر، ط١ (قسطنطينية: مطبعة الجوائب، ١٣٠٢)، ٤٧.

٩ القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط ٤ (مصر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٦)، ٤٤.

١٠ بن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، البرهان في وجوه البيان، تحقيق. مطلوب،أحمد و خديجة الحديثي، ط١ (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٧)، ١٧٥.

١١ السجلماسي، لأبي محمد القاسم، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق. علال الغازي، ط١ (المغرب: مكتبة المعارف، ١٩٨٠)، ٣٤٥.

* إنَّ الأقسام الخمسة هي : الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، فكان الباب الثالث مختصاً ببيان الفنون البلاغية التي تؤدي مهمة التضاد .

وتأويلي))[١٢] ، فلم يعد التقابل على وفق وجهة نظره حاملًا لمعاني التضادّ بل شاملٌ لمعانٍ كثيرة ليست لها علاقة بالتضادّ، يقول مفصلا في معنى التقابل موضِّحا منظوره : ((يسمح المنظور التقابلي لمحلل الخطاب بتوجيه دراسة الخطاب وفق ما يراه نافعا في التوصيل والتحليل والتأويل مع الاستئناس بالتطوّرات النظرية في تحليل الخطاب وخاصّة ما بدا أنَّه يقدم إفادة تحليلية على مستوى اللُّغة والتركيب و أدوات الإبلاغ والإقناع والتماسك والانسجام والملاءمة))[١٣] ويرى أن أدوات محلّل الخطاب لا تكتمل إلّا إذا كان مطَّلعًا على نظريات معيَّنَة، يقول : ((إنَّ محلل خطاب تقابليا يظل في حاجة إلى التزود من نظريات الفهم والتأويل وعلوم النص حتى يُحَقِّقَ درجةً عالية من التماسك والقوة والمقبولية و هو في حاجة كذلك إلى معاودة القراءة والتشريح الدقيق لموضوعه حتى تتحقَّق لديه قناعة تامة بما توصَّل إليه))[١٤]

لكنّي أجد رؤيته للتقابل فيها الكثير ممَّا ينبغي مناقشته فهو يجعل التقابل صنوًا للبلاغة، وهذا ما أكَّده تلميذه بقوله وهو يتحدّث عن التقابل ضمن حديثه عن مشروع القارئ البليغ ويستشهد بتعريف أرون كبيدي فاركا للبلاغة ((بأنَّها مجموعة من التقنيات التي تسمح بوصفها عملية إنتاج الخطابات والنصوص وإعادة بنائها))[١٥] فما فرق البلاغة هنا عن التقابل بحسب رؤية د. محمد بازي؟!

يقول مصطفى رجوان في معرض بيان معنى التقابل الذي يقصده أستاذه د. محمد بازي : ((إنَّ التقابل يتعلق بمفهوم العلاقات المركَّبِيَّة وهو طبيعة نصِّيَّة غير أنَّ التقابل ليس بالضرورة متجاوراً فقد تقابل بين عنصر لغوي في بداية النص وآخر في نهايته وهذا هو الجديد الذي يقدمه فكر التقابلي مع محمد بازي، وهو تجاوز العلاقات النمطية إلى علاقات جديدة أكثر من ثنائية ثلاثية ورباعية وخماسية إلخ بينما يتعلق التساند بالعلاقات الترابطية فيقوم بالربط بين ما هو نصي و غير نصي غير أنَّ الربط لا يتعلق بالكلمات فقط وإنَّما بالجمل والوحدات والأفكار والنص.... فيشتغل النحو والصرف والمعجم والثقافة إلى إلخ في عملية التأويل))[١٦]

١٢ بازي، محمد، نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ط١ (المغرب: دار الأمان للنشر، ٢٠١٣)، ٤٠٦.
١٣ رجوان، في بلاغة الخطاب من بديع اللفظ إلى بديع التأويل، ١٢.
١٤ رجوان، ١٢-١٣.
١٥ رجوان، ٤٢.
١٦ رجوان، ٤٧.

أمّا رؤيتي للتقابل فهي إبقاؤه على معنى التضادّ وجعل ما تطرَّق إليه د. محمد بازي وتبعه تلميذه مصطفى رجوان مختصًّا بالبلاغة الشمولية أي التي تنظر إلى تقديم رؤية شاملة متكاملة لجمال النصّ وتبيين مناحي ذلك الجمال فمنه ما يتعلق بعلاقاته التركيبية ومنه ما يتعلّق بما تقدِّمه العلوم الأخرى من نظرة تخدم من خلالها ذلك النصّ بنظرها إليه من زوايا مختلفة كلّ واحدة تبرز جماله بحسب مجال اشتغالها

وأظنّ أنَّ السير على ما قاله د. محمد بازي ـ مع شديد احترامي لرأيه ـ يؤدّي إلى إسباغ معانٍ أخرى على التقابل فيوهم القارئ ويخرج المصطلح إلى ما لا علاقة له به .

أمّا التساند : فالمقصود به ما يسند التقابل ويسهم في تعزيز معناه من طريق التطرّق إلى معانٍ أخرى، وقد وصفه د. محمد بازي عندما اجترحه مصطلحاً بما مفاده : أنَّه التأويل المستفاد من منافذ معرفية متعدّدة فهو ((يستحضر في عملية بناء المعاني كلّ العلوم المفيدة في الفهم من بلاغة و نحو وصرف وتاريخ و أعراف وتقاليد وشواهد مختلفة داعمة لتخريج دلالي إضافة إلى ملكاته التأويلية وخبرته بالفهم والتفهيم من ثمة فهي تتساند وتتعاون في الخطاب))[١٧] .

وعند تدبُّري معاني دعاء أبي حمزة الثمالي وجدت الإستراتيجيتين (التقابل ـ بحسب رؤيتي له ـ والتساند بحسب ما ورد في دراسة د. محمد بازي) تعملان بشكل متوازٍ في خدمة المعاني العبادية التي كرَّسها هذا الدعاء وأبان عن شدّة ارتباط الإمام بربه ودعا إلى تقوية علاقتنا بالله سبحانه وتعالى من خلال دعائنا بهذا الدعاء عبر الأزمان المتعاقبة وتأديب المتعبّدين من خلال خطاب الله تعالى بما يليق بجلالة قدره ويعمِّق أثر معرفته في النفوس المؤمنة .

ب ـ دعاء أبي حمزة الثمالي وإمكانية تطبيق الإستراتيجيتين عليه

الدعاء وسيلة عظيمة يتقرّب بها العباد إلى ربهم لتسموَ بذلك أرواحهم إلى مدارج الكمال، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر ٦٠] وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّ ((أفضل العبادة الدعاء، فإذا أذن الله

١٧ بازي، نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ٤٠٥.

للعبد بالدعاء فتح له باب الرحمة))[١٨١٩]، وقال أيضًا : ((الدعاء مخُّ العبادة))[٢٠] ، وقال أيضًا : ((الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين))[٢١٢٢].

وحثَّ عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأوصوا به أبناءهم[٢٣] .

اشتهر الإمام السجاد بتمكُّنٍ من ناصية اللُّغة وتركيزٍ كبيرٍ وتكثيف دقيقٍ للدلالة من خلال أسلوب الإيجاز الذي عرف به أئمة أهل البيت عليهم السلام لما ((في الإيجاز والاختصار ممَّا يخفُّ تدبره على الأفكار وتسهل مطالعته على القلوب والأبصار ويعدل به عن الإملال ... ويسلك به حجة التسهيل واليسار))[٢٤].

وكان دعاء أبي حمزة الثمالي مفصحاً عن شخصية الإمام السجاد المتعبدة المتبتّلة المرتبطة بالله خير ارتباط، فقد احتوى معاني رائقة تذوب عشقا في الله تعالى، علَّم من خلالها الناس أن يحبُّوا الله كما يحبّهم هو سبحانه، وكرَّس كلَّ المعاني القرآنية التي تدعو إلى العودة إلى الله تعالى في كلِّ الأمور والالتجاء إليه في السرّاء والضرّاء وضرورة معرفة أنَّ الدنيا زائلة وأن الآخرة هي الباقية فليعمل الإنسان لها وإذا عمل لها تحصَّن من الوقوع في المهالك الدنيوية وصلحت سريرته.

وكان التقابل وسيلته الأولى في بيان ماهيّة العبد الضعيف إزاء كينونة ربّه العظيم القوي متخذا من ذلك التقابل أشكالا عدَّة بحسب المقام المتكلّم عنّه، وقد يأتي التقابل وحده وقد يقترن بالتساند، وهذا ما سيبينه البحث بالتفصيل.

المبحث الأول : إستراتيجية التقابل في دعاء أبي حمزة الثمالي.

اتّضحت هذه الإستراتيجية بشكل لافت للنظر في هذا الدعاء، وكانت أبرز المعاني التي أفصحت عنها ثنائيات كان أبرزها :

---

١٨ العاملي، محمد بن حسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ط١ (قم: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٩)، ٧/ ٣١.

١٩ بن طاووس، السيد رضيّ الدين علي بن موسى، المجتنى من الدعاء المجتبى، تحقيق. صفاء الدين البصري، د.ط. (قم المقدسة: دار الولاء، د.ت.)، ١/ ٣.

٢٠ الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الأوسط، تحقيق. طارق بن عوض الله بن محمد أبو معاذ (القاهرة: دار الحرمين للطباعة، د.ت.)، ٣/ ٢٩١.

٢١ النيسابوري، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم، المُسْتَدرَك على الصحيحين، د.ط. (بيروت - لبنان: دار المعرفة، د.ت.)، ٢/ ٣٠١.

٢٢ أبو يعلى ،أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي، مسند أبي يعلى، تحقيق. حسين سليم أسد، د.ط. (دمشق - بيروت: دار المأمون للتراث، د.ت.)، ١/ ٣٦١.

٢٣ الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ط١ (لبنان: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١)، ٣/ ١١٥٨.

٢٤ المصري ،أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق. يحيى عبدالرؤوف جبر، ط١ (عمان: دار عمار، ١٩٨٥)، ٢٦٢.

***صغر العبد إزاء عظمة الخالق:**

أراد الإمام زين العابدين ﷺ أن ينطلق من دعاء أبي حمزة الثمالي لتربية العباد على التقرّب من الله، وكانت خير وسيلة لإدراك هذه الغاية استعمال التقابل، فقد تمكَّن الإمام بتوظيفه أن يحيط بذكر أحوال المخلوق ذي الأوصاف السلبية، بمقابل ذكر أحوال الخالق العظيم الذي يتّسم بالكمال والعفو والرحمة، مؤكّداً ضرورة الارتباط بالله في الأحوال كلّها، فمن خلال ذلك يعيش العبد في كنف ربه، وهذا ضروري جدًا ؛ لأنّ الناس في زمن الإمام ﷺ كانوا بأمسِّ الحاجة لهذا الارتباط نتيجة لاختلاط المفاهيم وضياع معالم الدين من خلال الفهم الخاطئ لمبادئه، وما يتبع ذلك من التطبيق غير السليم، وما ذاك إلّا لأنَّ الناس تركوا اتّباع نهج أهل البيت (ﷺ) الموصل إلى الله تعالى بالطريق الأسلم والسبيل الأفضل. والملحوظ أنَّ في داخل هذه الثنائية تفصيلات منها :

*** نقص العبد وكمال الخالق :**

يتّضح ذلك في احتياج العباد بمختلف أعمالهم للخالق العظيم وامتلاكه سبحانه لكلّ شيء، وقد استعرض الدعاء أحوال العباد التي دخل التقابل فيها، فكلٌّ من المحسن والمسيء بحاجة إلى الخالق العظيم، فقال الإمام :

((لاَ الَّذي اَحْسَنَ اسْتَغْنى عَنْ عَوْنِكَ وَرَحْمَتِكَ،

وَلاَ الَّذي أساءَ وَاجْتَرَأَ عَلَيْكَ وَلَمْ يُرْضِكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ[٢٥].

وهم جميعا يهرعون إلى الوسيلة التي تنجيهم من عذابه وتقربهم منه ألا وهي الدعاء الذي لابد منه، بأداتيه وهما الأصغران : (القلب واللسان) فيقول :

((اَدْعُوكَ يا سَيِّدي بِلِسان قَدْ اَخْرَسَهُ ذَنْبُهُ ،

رَبِّ اُناجيكَ بِقَلْب قَدْ اَوْبَقَهُ جُرْمُهُ))[٢٦]

فالتقابل بين " اللسان الذي أخرسه ذنبه، والقلب الذي أوبقه جرمه "

يوصل إلى نتيجة أنَّ الجميع محتاج لرحمة ربِّه وكلّ له أمل في أن تناله الرحمة التي تخرجه

٢٥ الشيخ القمي، عباس، مفاتيح الجنان، تعريب. السيد محمد رضا النوري النجفي، ط١ (بيروت - لبنان: دار المرتضى للطباعة والنشر، ٢٠١٩)، ٢٠٣.

٢٦ القمي، ٢٠٤.

مما هو فيه. والجميل أن اللسان يدعو على الرغم من الذنب الذي أخرسه، والقلب يناجي على الرغم من الجرم الذي أوبقه؛ فالخالق العظيم يسمع الكلام مهما كانت المقيدات عليه ويجيب المناجاة مهما كثرت الموبقات الخانقة له. وهذا يدلَّ على ثقة الإمام ﵇ المطلقة بالله سبحانه وأراد بذلك تعليم العباد هذه الثقة والتمسك بها .

وحتى تكتمل الإحاطة يذكر الإمام أحوال العبد المتضادة عند الدعاء في "الرهبة والرغبة"، وفي "الرجاء والخوف"

((اَدْعوُكَ يا رَبِّ راهِباً راغباً،

راجِياً خائِفاً))٢٧

وتبدو الدقَّة واضحة عند تصوير الإمام﵇ لحالي العبد في رجاء قبول دعائه وتصرفه حيال ذلك :

((إذا رَأَيْتُ مَوْلايَ ذُنُوبي فَزِعْتُ، وَإذا رَأَيْتُ كَرَمَكَ طَمِعْتُ))

ثم يبيِّن الإمام (﵇) في تقابلٍ ما سيتوقَّعُ من الخالق العظيم أنْ يقوم به من العفو أو العذاب فيقول :

((فَاِنْ عَفَوْتَ فَخَيْرُ راحِم، وَاِنْ عَذَّبْتَ فَغَيْرُ ظالِم،))

إنَّ ما جعل هذا التقابل مؤثِّراً التركيب الذي صاغه الإمام به فالشرط رفد طاقات التقابل ففعلا الشرط في الجملتين كانا متقابلين في (عفوت وعذبت) بينما تماثلت جملتا جواب الشرط في (فخير راحم)، و(فغير ظالم) ؛ لتجعل صفات الخالق موازية لأمل العابد به. فالإمام يأمل ويطمع بما عند الخالق سبحانه من عفو فهو خير راحم، وإن لم يعفُ فقد كان عادلاً ؛ لأنَّه حاسب على مقدار العمل، وكان التنغيم رافداً لطاقة التقابل من خلال التقسيم الصوتي بين الجملتين فكلّ كلمة منهما توافقت صوتيا وتقابلت معنويا فقد تكررت "إنْ" الشرطية وتقابلت "عفوت وعذَّبت" مع توافقهما الصوتي، وتجانست جناسا غير تام كلمتا "خير وغير" وكانت نهايتاهما مسجوعتين في "راحم وظالم " فجاءت الجملتان متناغمتين منسابتين لم يجد التكلّف اليهما طريقًا .

٢٧ القمي، ٢٠٤.

إنَّ الذنوب الكثيرة تجعل العبد يفزع من تقديمها إلى الله لكثرتها الموجبة للعقاب، لكنّه يتذكّر أنَّها معروضة على أرحم الراحمين، الكريم الذي يرى كبير الذنوب صغيرًا مما يُطمِع العبد في طلب غفرانها فما بين الفزع والهروب، والطمع والإقدام من جهة العبد، والغفران وعدمه من جهة الخالق، تبرز طاقات التضادّ على إبراز جمال دلالة التقابل الموحية بالإحاطة، فمهما علا شأن العبد فهو صغير بإزاء عظمة الخالق الكبير، ومهما كثرت ذنوبه ،فهي صغيرة حيال كرم الخالق العظيم

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قول الإمام عليه السلام:

((الْحَمْدُ لله الَّذي أدْعوُهُ فَيُجيبُني وَإنْ كُنْتَ بَطيئاً حينَ يَدْعوُني، وَاَلْحَمْدُ لله الَّذي اَسْأَلُهُ فَيُعْطيني وَاِنْ كُنْتُ بَخيلاً حينَ يَسْتَقْرِضُني))[٢٨] وقد صاغ الإمام جمل التضادّ بأسلوب جعل المعاني أكثر ترسيخا، وإذا أردنا إعادة ترتيبه فستكون كلماته على النحو الآتي:

إنّه سبحانه سريع الإجابة مع عظمته؛ لأنَّه الخالق

وأنـــــــا بطيء الإجابة مع صغري؛ لأنّني العبد

وهو سبحانه كثير العطايا عند دعائه ...وأنا قليل العطايا عندما يستقرضني لأساعد خلقه .

عظمة الخالق من خلال عدالته المتمثّلة بالتعذيب والغفران

((وَاَنْتَ الْفاعِلُ لِما تَشاءُ تُعَذِّبُ مَنْ تَشاءُ بِما تَشاءُ كَيْفَ تَشاءُ، وَتَرْحَمُ مَنْ تَشاءُ بِما تَشاءُ كَيْفَ تَشاءُ، فَسُبْحانَكَ ما اَحْلَمَكَ وَاَعْظَمَكَ وَاَكْرَمَكَ مُبْدِئاً وَمُعيداً...))

فمن خلال بيان هذه العظمة واقترانها بالحلم والكرم اتّضحت أضدادها في العبد :

فهو المخطئ المحتاج لحلم ربّه والسائل المحتاج لكرم خالقه والضعيف المحتاج لقوّة الله وعظمته،

وقد أبرز الإمام من خلال التقابل مصاديق تلك العظمة من خلال مخاطبته :

((وَاَنْتَ الْفاعِلُ لِما تَشاءُ :

تُعَذِّبُ مَنْ تَشاءُ بِما تَشاءُ كَيْفَ تَشاءُ)) بمقابل :

((وَتَرْحَمُ مَنْ تَشاءُ بِما تَشاءُ كَيْفَ تَشاءُ))

وأدخل التعجب من عظمة الخالق في تقابل آخر :

٢٨ القمي، ٢٠٣.

فَسُبْحانَكَ ما اَحْلَمَكَ وَاَعْظَمَكَ وَاَكْرَمَكَ : مُبْدِئاً / وَمُعيداً،

*** مراعاة الله للعبد صغيرًا وكبيرًا، في الدنيا والآخرة**

كقول الإمام عليه السلام: ((اِلهي رَبَّيْتَني في نِعَمِكَ وَاِحْسانِكَ صَغيراً،

وَنَوَّهْتَ بِاِسْـــمي كَـــــبيراً،

فَيا مَنْ رَبّاني فِي الدُّنْيا بِإِحْسانِهِ وَتَفَضُّلِهِ وَنِعَمِهِ،

وَاَشارَ لي فِي الْاٰخِرَةِ اِلى عَفْوِهِ وَكَرَمِهِ))[٢٩]

فالملحوظ أنَّ التقابل في النصين كان متمَثِّلاً في الطباق بين (صغيرا) و(كبيرا) و(الدنيا) و(الآخرة). لكن ذلك جاء في إطار الامتزاج بأسلوب التماثل المُوَضِّح للعناية الإلهية من خلال الإحسان مع هذا الإنسان من صغره إلى كبره، وقد امتدت معه هذه العناية من دنياه إلى آخرته .

***ذكر ثقة العبد بالله وركونه إلى عفوه الكريم عن ذنوب العباد لصفاته الإلهية العظيمة**

وقوله عليه السلام أيضاً :

((فَلَوِ اطَّلَعَ الْيَوْمَ عَلى ذَنْبي غَيْرُكَ ما فَعَلْتُهُ، وَلَوْ خِفْتُ تَعْجيلَ الْعُقُوبَةِ لاَجْتَنَبْتُهُ، لا لأَنَّكَ أَهْوَنُ النّاظِرينَ وَاَخَفُّ الْمُطَّلِعينَ، بَلْ لأَنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السّاتِرينَ، وَاَحْكَمُ الْحاكِمينَ، وَاَكْرَمُ الأَكْرَمينَ، سَتّارُ الْعُيُوبِ، غَفّارُ الذُّنُوبِ، عَلاّمُ الْغُيُوبِ، تَسْتُرُ الذَّنْبَ بِكَرَمِكَ، وَتُؤَخِّرُ الْعُقُوبَةَ بِحِلْمِكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَعَلى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ،)) ٣٠ وهنا أفاض الإمام عليه السلام بذكر صفات الخالق العظيمة التي تجعل العبد مطمئنًا لوجوده سبحانه معه ولمراعاته لأحواله فهو الذي خلقه وهو أعلم باحتياجاته وأدرى بما يمكن أن يتعرّض له من الوقوع في المزالق وهذا يتّضح في هذا النصّ من بدايته جاعلا أداة الامتناع (لو) سبيلا لبيان ذلك الاطمئنان ((فَلَوِ اطَّلَعَ الْيَوْمَ عَلى ذَنْبي غَيْرُكَ ما فَعَلْتُهُ، وَلَوْ خِفْتُ تَعْجيلَ الْعُقُوبَةِ لاَجْتَنَبْتُهُ)) مع بيان السبب ((لا لأَنَّكَ أَهْوَنُ النّاظِرينَ وَاَخَفُّ الْمُطَّلِعينَ،)) جاعلًا السبب الحقيقي بعد (بل) التي تفيد الإضراب، موردًا جملًا إسمية مؤكّدة بـ(أن) وقد عدَّد فيها صفات الخالق العظيمة)) بَلْ (لأَنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السّاتِرينَ)، وَ(اَحْكَمُ الْحاكِمينَ)، وَ(اَكْرَمُ

٢٩ القمي، ٢٠٤.

٣٠ القمي، ٢٠٥.

الأكْرَمينَ)، (سَتّارُ الْعُيُوبِ)، (غَفّارُ الذُّنُوبِ)، (عَلاّمُ الْغُيُوبِ))، وقد عاد لتفصيل ما ذكر من صفات عظيمة لله تعالى فقال : ((تَسْتُرُ الذَّنْبِ بِكَرَمِكَ)، (وَتُؤَخِّرُ الْعُقُوبَةَ بِحِلْمِكَ))

وممّا جذب انتباهي التماثل بين مقطعي القول الكريم، فـ (ما فعلته) هي ذاتها (لاجتنبته) ودخل في بنية تماثل آخر : (لا لأَنَّكَ أَهْوَنُ النّاظِرِينَ وَاَخَفُّ الْمُطَّلِعينَ)، (بَلْ لأَنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السّاتِرينَ، وَاَحْكَمُ الْحاكِمينَ، وَاَكْرَمُ الأكْرَمينَ) فـ(خَيْرُ السّاتِرينَ، وَاَحْكَمُ الْحاكِمينَ، وَاَكْرَمُ الأكْرَمينَ) صفات تدل على عظمة الخالق واقتداره وكرمه تماثلت لتكوِّنَ الصورة العظيمة للخالق المستحق وحده للعبادة .

فهذا التساند كشف لنا عن علاقة الإمام ﷺ بالله تعالى وشدة ثقته به ؛ ليعلمنا أن نسلك معه سبحانه هذا السبيل ويؤدبنا على هذه المناجاة الراقية منطلقين من كمالات الله لإصلاح نقصان أنفسنا .

***رجاء المخلوق وعطاء الخالق**

وقد برز ذلك من خلال توازن جميل، ذَكَرَ فيه الإمام ﷺ ما سيفعله هو بإزاء ما سيطلبه الله سبحانه منه متخذًا من أساليب الشرط والقسم والتوكيد سبيلا لإتمام ذلك حيث قال :

((اِلهي وَسَيّدي وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لَئِنْ طالَبْتَني بِذُنُوبي لأُطالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ،
وَلَئِنْ طالَبْتَني بِلُؤْمي لأُطالِبَنَّكَ بِكَرَمِكَ،
وَلَئِنْ اَدْخَلْتَنِى النّارَ لأُخْبِرَنَّ اَهْلَ النّارِ بِحُبّي لَكَ،
اِلهي وَسَيِّدي اِنْ كُنْتَ لا تَغْفِرُ إلاّ لأَوْلِيائِكَ وَاَهْلِ طاعَتِكَ فَاِلى مَنْ يَفْزَعُ الْمُذْنِبُونَ،
وَاِنْ كُنْتَ لا تُكْرِمُ إلاّ اَهْلَ الْوَفاءِ بِكَ فَبِمَنْ يَسْتَغيثُ الْمُسيؤُنَ
اِلهي اِنْ اَدْخَلْتَنِى النّارَ فَفي ذلِكَ سُرُورُ عَدُوِّكَ، وَاِنْ اَدْخَلْتَنِى الْجَنَّةَ فَفي ذلِكَ سُرُورُ نَبِيِّكَ، وَاَنَا وَاللهِ اَعْلَمُ اَنَّ سُرُورَ نَبِيِّكَ اَحَبُّ اِلَيْكَ مِنْ سُرُورِ عَدُوِّكَ))[٣١]

فقد أقسم قائلا (وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ) مع اللام الموطئة للقسم مع الشرط :

(لَئِنْ طالَبْتَني بِذُنُوبي لأُطالِبَنَّكَ بِعَفْوِكَ، وَلَئِنْ طالَبْتَني بِلُؤْمي لأُطالِبَنَّكَ بِكَرَمِكَ، وَلَئِنْ اَدْخَلْتَنِى النّارَ لأُخْبِرَنَّ اَهْلَ النّارِ بِحُبّي لَكَ)) في حوار عذب من أبدع ما يكون فيه العبد متبتّلا ذائبا في حبّ الله .

٣١ القمي، ٢١٢.

ورجع من جديد ليظهر ذلك الرجاء مبينًا أنَّ عفو الله سيشمل الجميع في تقابل جميل آخر من خلال أسلوبَي الشرط والاستفهام ((اِنْ كُنْتَ لا تَغْفِرُ إلاّ لأوْلِيائِكَ وَاَهْلِ طاعَتِكَ فَاِلى مَنْ يَفْزَعُ الْمُذْنِبُونَ، وَاِنْ كُنْتَ لا تُكْرِمُ إلاّ اَهْلَ الْوَفاءِ بِكَ فَبِمَنْ يَسْتَغيثُ الْمُسيؤُنَ)) جاعلًا هذا الدعاء مليئًا بما يجعل العبد أقرب لحوار الله بكل شفافية وانفتاح واطمئنان .

بُني التقابل في دعاء أبي حمزة الثمالي

أعني بذلك بحث التقابل من ناحية التركيب، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ التقابل في هذا الدعاء لم يأتِ على صيغة واحدة بل جاء بصيغ متعدّدة، أي أنَّ التقابل ورد في تراكيب الجمل سواء أكانت جملة واحدة أم مجموعة من الجمل، وقد برزت هذه الأنواع في دعاء أبي حمزة بحسب حاجة السياق، علما أنَّ التضادّ بالكلمات المفردة لم يأتِ في هذا الدعاء إذ ركَّز الإمام عليه السلام على التضادّ الجُمَلي لأهميته في إثراء الدلالة، وكان على أنواع أهمها :

***أنْ يستغرق التقابل جُمَلا قليلة وذلك :**

ـ عند تصوير عناية الخالق سبحانه بالمخلوق ومراعاة أحواله المختلفة كقول الإمام :

((إلهي / رَبَّيْتَني في نِعَمِكَ وَإِحْسانِكَ صَغيرا /

/ وَنَوَّهْتَ بِاسْمي كَبيراً/

فَيا مَنْ / رَبّاني فِي الدُّنْيا بِإِحْسانِهِ وَتَفَضُّلِهِ وَنِعَمِهِ/

/ وَأَشارَ لي فِي الآخِرَةِ إِلى عَفْوِهِ وَكَرَمِهِ/))[٣٢] فكان التقابل موضّحا لملازمة العناية الإلهية للإنسان من صغره حتى كبره وتربيته في إحسان الله وتفضُّله ونعمه في الدنيا، والإشارة اليه بالعفو الكرم في الآخرة لتمتد تلك العناية شاملة أحوال العبد ملازمة له بأنواعها المتعددة في الدنيا والآخرة .

التقابل في جمل إسمية كثيرة متعاطفة موجزة الوصف شاملة للمعاني المتقابلة

ويكون البناء معتمداً على مجموعة متتالية من التقابلات الداخلة في جمل إسمية

فيكون التقابل أحيانا معتمداً على تتالي التقابلات المكونة لجمل إسمية معطوفة على بعضها، وتكون جملة صلة الموصول عبارة عن كلمة واحدة هي الفعل والمفعول به، وكان

٣٢ القمي، ٢٠٤.

الطرف الأوّل جملة مكوّنة من المبتدأ والخبر والطرف الثاني الجملة المقابلة المكونة من الاسم الموصول وصلته، كما في قول الإمام :

((سَيِّدي

•اَنَا الصَّغيرُ/ الَّذي رَبَّيْتَهُ،

وَاَنَا الْجاهِلُ / الَّذي عَلَّمْتَهُ،

وَاَنَا الضّالُّ / الَّذي هَدَيْتَهُ،

وَاَنَا الْوَضيعُ / الَّذي رَفَعْتَهُ،

وَاَنَا الْخائِفُ / الَّذي آمَنْتَهُ،

وَالْجائِعُ / الَّذي اَشْبَعْتَهُ،

وَالْعَطْشانُ / الَّذي اَرْوَيْتَهُ،

وَالْعاري / الَّذي كَسَوْتَهُ،

وَالْفَقيرُ / الَّذي اَغْنَيْتَهُ،

وَالضَّعيفُ / الَّذي قَوَّيْتَهُ

وَالذَّليلُ / الَّذي اَعْزَزْتَهُ،

وَالسَّقيمُ / الَّذي شَفَيْتَهُ،

وَالسّائِلُ / الَّذي اَعْطَيْتَهُ

وَالْمُذْنِبُ / الَّذي سَتَرْتَهُ

وَالْخاطِئُ / الَّذي اَقَلْتَهُ،

وَاَنَا الْقَليلُ / الَّذي كَثَّرْتَهُ،

وَالْمُسْتَضْعَفُ/ الَّذي نَصَرْتَهُ

وَاَنَا الطَّريدُ / الَّذي آوَيْتَهُ))[٣٣]

وقد وجدت هذا اللون من أبدع ما جاء في الدعاء من التقابلات على الرغم من كونها أكثر اختصارًا وإيجازًا لكنّها استعرضت أحوال العبد وأخطاءه بعد الضمير المنفصل (أنا)

٣٣ القمي، ٢٠٨.

وعظمة الخالق التي بانت في الأفعال التي جاءت بعد الاسم الموصول (الذي) وقع خبرا وتلك الأفعال أبانت ما فعله الخالق العظيم مع العبد وهي :

((رَبَّيْتَهُ، عَلَّمْتَهُ،هَدَيْتَهُ،رَفَعْتَهُ،آمَنْتَهُ،اَشْبَعْتَهُ،اَرْوَيْتَهُ،كَسَوْتَهُ،اَغْنَيْتَهُ، قَوَّيْتَهُ اَعْزَزْتَهُ، شَفَيْتَهُ، اَعْطَيْتَهُ سَتَرْتَهُ اَقَلْتَهُ، كَثَّرْتَهُ، نَصَرْتَهُ آوَيْتَهُ)) هي صفات كاملة قابلت صفات النقص في العبد المذكورة قبلها .

***التقابل الجملي في بنية طباق السلب**

ليس كل تقابل وارد في هذا الدعاء كان بالكلمات المتقابلة، فبعضها ورد في بناء الجملة الفعلية مستفيدا من دلالة طباق السلب المتكونة من الفعل ونفيه للدلالة على تقابل المعاني وتكريس دلالة الحمد التي عمد إليها الإمام عليه السلام، بقوله :

((الْحَمْدُ لله الَّذي لا أَدْعُو غَيْرَهُ وَلَوْ دَعَوْتُ غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لي دُعائي، وَالْحَمْدُ لله الَّذي لا أَرْجُو غَيْرَهُ وَلَوْ رَجَوْتُ غَيْرَهُ لَأَخْلَفَ رَجائِي، وَالْحَمْدُ لله الَّذي وَكَلَني إِلَيْهِ فَأَكْرَمَني وَلَمْ يَكِلْني إِلَى النّاسِ فَيُهينُوني))[٣٤]

فقد تكرَّست هذه الدلالة التي هيمنت على السياق من خلال جُمَل الحمد الثلاث التي وردت فيها الأفعال ونفيها، فعلان منها مضارعان منفيان هما :

(لا أدعو ولا أرجو) ومقابلهما (دعوت، ورجوت)، والفعل الثالث ماضٍ (وكلني) ومقابله المضارع المجزوم (لم يكلني)، والملحوظ أن الفعلين المضارعين المتحدثين عن المخلوق دخل عليهما الشرط بـ (لو)، فلو دعا العبد غير الله سبحانه لم يستجب له ولو رجا غيره لأخلف رجاءه .

بينما خلا الفعل المنسوب إلى الله تعالى من الشرط (وكلني) وجاء ماضيا للدلالة على حتمية وقوعه وحصول الإكرام به وجاء مقابله المنفي (لم يكلني) مضارعا ليدل على التجدّد والحدوث ؛ إتماماً لرسم صورة العناية الإلهية والحكمة الربانيَّة .

ولم يقل الإمام عليه السلام: (ولو وكلني إلى الناس لأهانوني)): لأن الرجاء والدعاء غير التوكّل في الرزق الذي يجعل الإنسان على المحك، فمن خلاله تحفظ كرامة العبد والله تعالى يريد العزة لعباده

٣٤ القمي، ٢٠٣.

فجاء في الفعل الخاص بالخالق بما يناسب الاستعمال لتكريس الدلالات على أفضل وجه.

المبحث الثاني إستراتيجية التساند في دعاء أبي حمزة الثمالي:

أشرت فيما سبق إلى أن المقصود بالتساند ما يسند التأويل ويرفد طاقات الجُمَل الإيحائية في السياقات، فمن يتأمّل هذا الدعاء يجد التساند هو الافتتاح من خلال الإفادة من دلالات أساليب الطلب التي يقوم عليها الدعاء من خلال النهي المجازي ،

كما في قول الإمام : ((اِلهي لا تُؤَدِّبْني بِعُقُوبَتِكَ، وَ لا تَمْكُرْ بي في حيلَتِكَ)).[٣٥]

فهو يسأل الله أن يأخذه بحلمه فلا تكون العقوبة تأديبا له ولا المكر بالحيلة مباغتة له، وينتقل بعد ذلك متسائلا مستفيدا من دلالات الاستفهام وأسلوب القصر، وقصد بذلك الإشارة إلى أنَّ الخير كلَّه بيد الله والنجاة لا تكون إلّا من عند الله تعالى : ((مِنْ اَيْنَ لِيَ الْخَيْرُ يا رَبِّ وَ لا يُوجَدُ إلاّ مِنْ عِنْدِكَ، وَ مِنْ اَيْنَ لِيَ النَّجاةُ وَ لا تُسْتَطاعُ إلاّ بِكَ))[٣٦].

وقد كانت للتساند في دعاء أبي حمزة سياقات أهمها :

***طلب الخير والنجاة من الله تعالى .**

لما كان الخير والنجاة محورين يدور عليهما الدعاء حسن بدء الإمام ﷺ بهما .

مستفيدا من طاقات النداء الذي هو سبيل الدعاء بـ (اللهم) كما في قوله في تساند جميل آخر :

((اَللّـهُمَّ اِنّي اَجِدُ سُبُلَ الْمَطالِبِ اِلَيْكَ مُشْرَعَةً، وَ مَناهِلَ الرَّجاءِ لَدَيْكَ مُتْرَعَةً، وَ الاْسْتِعانَةَ بِفَضْلِكَ لِمَنْ اَمَّلَكَ مُباحَةً، وَ اَبْوابَ الدُّعاءِ اِلَيْكَ لِلصّارِخينَ مَفْتُوحَةً، وَ اَعْلَمُ اَنَّكَ لِلرّاجِينَ بِمَوْضِعِ اِجابَة، وَ لِلْمَلْهُوفينَ بِمَرْصَدِ اِغاثَة)).[٣٧]

فنجد أن السياق ينبض بالرقّة وكانت الاستعارة رافدة لطاقات التصوير، فالمطالب لها سبل مشرعة والدعاء له أبواب مفتّحة، وكانت الدقّة حاضرة في بيان كلّ سياق وما يناسبه فالله تعالى (للراجين موضع إجابة)، بينما هو(للملهوفين مرصد إغاثة) وكان التعليل حاضرا والتوكيد واضحا فيما تبع ذلك من سياق : ((وَ اَنَّ فِي اللَّهْفِ اِلى جُودِكَ وَ الرِّضا بِقَضائِكَ عِوَضاً مِنْ مَنْعِ الْباخِلينَ، وَ مَنْدُوحَةً عَمّا في اَيْدي الْمُسْتَأْثِرينَ)) فما عند الله باقٍ

٣٥ القمي، ٢٠٣.
٣٦ القمي، ٢٠٣.
٣٧ القمي، ٢٠٣.

مستمر بينما ما في أيدي الباخلين لا يمكن الوثوق به. والملحوظ أنَّ الإمام يستعمل طاقات التوكيد في المواضع التي قد تثير تساؤلات لدى سامعيها؛ لذا أردف السياق بالتوكيد بـ(أنَّ) لأنَّها الأكثر استعمالًا وإحاطة وأردفها بالتوكيد بـ (قد) التحقيقية في وصف قلَّ نظيره لرحلة فريدة من نوعها ؛ لأنَّها رحلة إلى الله تعالى المطلع على كلّ شيء الذي لا يحتجب عن خلقه إلا إذا عملوا بينهم وبينه حجابا من أعمالهم يقول عليه السلام:

((وَ اَنَّ الرِاحِلَ اِلَيْكَ قَريبُ المُسافَةِ، وَ اَنَّكَ لا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إلاّ اَنْ تَحْجُبَهُمُ الأعمالُ دُونَكَ، وَ قَدْ قَصَدْتُ اِلَيْكَ بِطَلِبَتي، وَ تَوَجَّهْتُ اِلَيْكَ بِحاجَتي، وَ جَعَلْتُ بِكَ اسْتِغاثَتي، وَ بِدُعائِكَ تَوَسُّلي))[٣٨] ولم يكتفِ بذلك بل جعل النصّ مستفيدًا من طاقات الإطناب من خلال التوضيح والتعليل فما قام به من القصد لله والتوجه بالحاجة إليه ليس لاستحقاقه بل للثقة بالله تعالى ولأنَّه لا معبود سواه : ((مِنْ غَيْرِ اِسْتِحْقاق لِاسْتِماعِكَ مِنّي، وَ لاَ اسْتيجاب لِعَفْوِكَ عَنّي، بَلْ لِثِقَتي بِكَرَمِكَ، وَ سُكُوني اِلى صِدْقِ وَ عْدِكَ، وَلَجَائي اِلَى الأيمانِ بِتَوْحيدِكَ، وَ يَقيني بِمَعْرِفَتِكَ مِنّي اَنْ لا رَبَّ لي غَيْرُكَ، وَ لا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ وَحْدَكَ لا شَريكَ لَكَ .))[٣٩]، فلم يترك منفذًا يستدر به عطف الله تعالى إلّا ودخل فيه، فكانت الإحاطة مركَّزَةً والإفادة من طاقات التعبير قائمة.

والإفادة من ذكر الأوصاف الدالّة على دأب البشر، إذ يقول:

((عَظُمَ يا سَيِّدي اَمَلي، وَساءَ عَمَلي))[٤٠] فعندما يعظم الأمل يسوء العمل ـ وهو هنا لسان حال غيره ـ فما عُرِفَ عن الإمام من شدَّة ورعه يدلُّ على أنَّ المقصود ممَّا ورد رسالة أرسلها الإمام للأجيال أن يعظموا الأمل بالله تعالى مهما ساءت أعمالهم.

وأردف ذلك بقوله :

((فَاَعْطِني مِنْ عَفْوِكَ بِمِقْدارِ اَمَلي، وَلا تُؤاخِذْني بِأَسْوَأ عَمَلي))[٤١]

مستفيدًا من أساليب الطلب في الأمر المجازي الذي خرج للدعاء في "أعطني " والنهي المجازي الذي خرج للدعاء أيضا في "ولا تؤاخذني"

٣٨ القمي، ٢٠٤.
٣٩ القمي، ٢٠٤.
٤٠ القمي، ٢٠٤.
٤١ القمي، ٢٠٤.

فهو يدعو بمستوى سعيه البشري القليل مع أمله الكبير .

ويرجو من ربّه ما يليق بعظيم مقامه الإلهي، مستفيدًا من طاقات التوكيد في تساند ثانٍ بقوله :

((فَإِنَّ كَرَمَكَ يَجِلُّ عَنْ مُجازاةِ الْمُذْنِبينَ، وَحِلْمَكَ يَكْبُرُ عَنْ مُكافأةِ الْمُقَصِّرينَ))[٤٢]

فقد استعمل التوكيد بـ(إنَّ) للدلالة على شِدَّة كرم الله وعظيم حلمه وهذا التوكيد واردٌ لإقناع من يسمع الدعاء ويتبادر إلى ذهنه شك في أنْ يعفو الله على الرغم من كثرة ذنوب المذنبين وقلّة عمل المقصرين. أمَّا الإمام فمتيقن من ذلك .

والمعروف أنَّ التوكيد يأتي لإقناع المتلقّي وليس لشك المتكلّم ويكون مقدار التوكيد على قدر شك المتلقي فتتوزع الأخبار بين النوع الطلبي ـ وهذا الموضع داخل فيه ـ وبين النوع الإنكاري الذي تكون مؤكداته اثنتين فأكثر[٤٣] .

بيان آثار مراودة الشيطان للإنسان العابد

برز ذكر هذه الآثار في تفصيل لافت للنظر، وربّما كان ما يقول هو لسان حال العابدين الذين سيقرأون الدعاء

((مالي كُلَّما قُلْتُ قَدْ صَلَحَتْ سَريرَتي، وَقَرُبَ مِنْ مَجالِسِ التَّوّابينَ مَجْلِسي، عَرَضَتْ لي بَلِيَّةٌ اَزالَتْ قَدَمي، وَحالَتْ بَيْني وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ

سَيِّدي لَعَلَّكَ عَنْ بابِكَ طَرَدْتَني، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَني اَوْ لَعَلَّكَ رأيتني مُسْتَخِفّاً بِحَقِّكَ فأقصيتني، اَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَني مُعْرِضاً عَنْكَ فَقَلَيْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَني في مَقامِ الْكاذِبينَ فَرَفَضْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَني غَيْرَ شاكِرٍ لِنَعْمائِكَ فَحَرَمْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَني مِنْ مَجالِسِ الْعُلَماءِ فَخَذَلْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَني فِي الْغافِلينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَني آلِفَ مَجالِسِ الْبَطّالينَ فَبَيْني وَبَيْنَهُمْ خَلَّيْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ لَمْ تُحِبَّ اَنْ تَسْمَعَ دُعائي فَباعَدْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ بِجُرْمي وَجَريرَتي كافَيْتَني، اَوْ لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيائي مِنْكَ جازَيْتَني،))[٤٤]

هنا كان الإمام لسان حال الناس الذين يتعرَّضون لغمزات الشياطين أو لعوارض تبعدهم عن القصد الكريم للتقرب إلى الله أكثر مع سعيهم الحثيث لإصلاح أنفسهم ((مالي كُلَّما

٤٢ القمي، ٢٠٤.

٤٣ عتيق ،عبد العزيز، علم المعاني، ط ١ (بيروت - لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩)، ٥٣.

٤٤ القمي، مفاتيح الجنان، ٢٠٧.

قُلْتُ قَدْ صَلَحَتْ سَرِيرَتِي، وَقَرُبَ مِنْ مَجَالِسِ التَّوَّابِينَ مَجْلِسِي، عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ اَزالَتْ قَدَمِي، وَحالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ)) وقد جعل الاستفهام بـ (مالي)والشرط غير الجازم بـ (كلّما) سبيلا لرسم تلك الصورة، بعدها أخذ الإمام يعدد ما يمكن أن يكون سببا لذلك مستثمرا ما منحه أسلوب الترجّي بـ (لعلّ) من دلالات فقد تكرّر إحدى عشرة مرّة في كلّ مرّة يتنوع السبب الذي اعتقد الإمام أنّه هو الذي أبعده، مستعرضا هذه الاحتمالات باستفاضة، مبيِّناً الأحوال التي يمكن للعبد أن يقوم بها ممّا أعطى للتساند جمالا وطاقات كشفت عن قدرة الإمام عليه السلام على الإحاطة بأحوال العباد المختلفة من دون أن يترك حالة تخطر ببال متسائل .

بعدها قال مستعملًا تساندًا آخر : ((فَاِنْ عَفَوْتَ يا رَبِّ فَطالما عَفَوْتَ عَنِ الْمُذْنِبِينَ قَبْلي؛ لأنَّ كَرَمَكَ اَيْ رَبِّ يَجِلُّ عَنْ مُكافاة الْمُقَصِّرِينَ، وَاَنَا عائِذٌ بِفَضْلِكَ، هارِبٌ مِنْكَ اِلَيْكَ، مُتَنَجِّزٌ ما وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ اَحْسَنَ بِكَ ظَنّاً، اِلهي اَنْتَ اَوْسَعُ فَضْلاً، وَاَعْظَمُ حِلْماً مِنْ اَنْ تُقايِسَني بِعَمَلي اَوْ اَنْ تَسْتَزِلَّني بِخَطيئَتي، وَما اَنَا يا سَيِّدي وَما خَطَري، هَبْني بِفَضْلِكَ سَيِّدي، وَتَصَدَّقْ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ، وَجَلِّلْني بِسَتْرِكَ، وَاعْفُ عَنْ تَوْبيخي بِكَرَمِ وَجْهِكَ))[٤٥] فقد أفاد من أسلوب الشرط بـ (إنْ)، معلِّلا سبب العفو في ((لأنَّ كَرَمَكَ اَيْ رَبِّ يَجِلُّ عَنْ مُكافاة الْمُقَصِّرِينَ)) بعدها يستفيد من أسلوب الحال لبيان حاله وهو يرى كرم ربّه الذي يعفو عن المسيئين باستعمال الجمل الحالية في ((وَاَنَا عائِذٌ بِفَضْلِكَ، هارِبٌ مِنْكَ اِلَيْكَ، مُتَنَجِّزٌ ما وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ اَحْسَنَ بِكَ ظَنّاً)) بعدها يعود لوصف الخالق سبحانه بجمل إسمية موضحة سعة فضل الله وعظيم حلمه بعد أن أفاضَ في وصف المخلوق الآمل لما عند الله تعالى فقال : ((اِلهي اَنْتَ اَوْسَعُ فَضْلاً، وَاَعْظَمُ حِلْماً مِنْ اَنْ تُقايِسَني بِعَمَلي اَوْ اَنْ تَسْتَزِلَّني بِخَطيئَتي)) ثم ينتقل مباشرة لتوضيح شأن المخلوق بقوله مستفيدا من أساليب الطلب وأوَّلُها أسلوب الاستفهام في : ((وَما اَنَا يا سَيِّدي وَما خَطَري ؟!!)) ليعود لأسلوب طلب آخر وهو الأمر من خلال أربعة أفعال أمر هي : (هبني، وتصدَّق، وجَلِّلْنِي، واعْفُ)) في قوله : ((هَبْني بِفَضْلِكَ سَيِّدي، وَتَصَدَّقْ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ، وَجَلِّلْني بِسَتْرِكَ، وَاعْفُ عَنْ تَوْبيخي بِكَرَمِ وَجْهِكَ)) فهل بعد هذه الرقّة في الدعاء من رقّة تستعطف الخالق العظيم ؟!

٤٥ القمي، ٢٠٧.

دعاء العبد ليكون أفضل العباد طاعة لله

حين يريد المرء أن يصفّي روحه بالعبادة يزهد في الدنيا ويقبل على الله تعالى سعيا للوصول إلى رتبة العُبَّاد الزُّهاد الذين يعشقون لقاء الله تعالى ؛ لذا جسَّد الإمام ﷺ ذلك ليخطّ للعابدين سبيلًا في الاستعداد للقاء الله سبحانه حيث يقول :

((يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرامِ حَبِّبْ اِلَيَّ لِقاءِكَ وَاَحْبِبْ لِقائي، وَاجْعَلْ لي في لِقائِكَ الرّاحَةَ وَالْفَرَجَ وَالْكَرامَةَ))[٤٦]

لقد أفاد الإمام ﷺ من أساليب الطلب من خلال دعاء الله بأسمائه الحسنى ومنها : (يا ذا الجلال والإكرام)) وكان متوسّلًا إلى الله أن يحبب إليه لقاءه، ولم يكن هذا التحبيب من جانب العبد فقط وإنّما طلب من خالقه العظيم أن يحب لقاءه، فالحب بين الإمام ﷺ وخالقه متبادل دائم، وقد طلب من ربِّه أن تكون الراحة والفرج والكرامة في أحضان ذلك اللقاء الآمن البهي، وكان سبيله في تحقيق هذه الوسيلة أسلوب الأمر من خلال أفعال أمر ثلاثة هي (حبِّب، وأحبب، واجعل) والملحوظ أنَّ الإمام استعمل صيغة (فعِّل) في (حبِّب) ؛ لترغيب العبد بالحبِّ بينما استعمل صيغة (أفعل) في الفعل (أحبب)حين يكون الحبّ من الله تعالى للعبد ممّا يدلّ على الدقّة، فالعبد يحتاج شدّة الحبّ لتقصيره وبعده عن الله في الحياة الدنيا فكان ما يناسب ذلك الصيغة المشدّدة، بينما الله سبحانه يحبّ عباده ويحبّ لقاءهم أصلا فناسبه الفعل غير المشدّد. مما يدلّ على بلاغة الإمام ﷺ الشديدة وانتقائه الألفاظ لتناسب المقامات المتحدّث عنها .

***التأكيد على الصلاح وتكرار المطالبة به**

لاريب أنّ من أوّل أولويّات الدعاء أن يصلح النفوس ؛ لذا بان ذلك في هذا الدعاء المبارك في إستراتيجية التساند يقول ﷺ:

((اَللّهُمَّ اَلْحِقْني بِصالِحِ مِنْ مَضى، وَاجْعَلْني مِنْ صالِحِ مَنْ بَقي وَخُذْ بي سَبيلَ الصّالِحِينَ، وَاَعِنّي عَلى نَفْسي بِما تُعينُ بِهِ الصّالِحِينَ عَلى اَنْفُسِهِمْ، وَاخْتِمْ عَمَلي بِاَحْسَنِهِ، وَاجْعَلْ ثَوابي مِنْهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ،

٤٦ القمي، ٢١٢_٢١٣.

وَاَعِنّي عَلى صالِحِ ما اَعْطَيْتَني، وَثَبِّتْني يا رَبِّ، وَلا تَرُدَّني في سُوء اسْتَنْقَذْتَني مِنْهُ يا رَبِّ الْعالَمَينَ))[٤٧] .

لقد أفاد الإمام عليه السلام من طاقات التكرار الدلالية لتوكيد معنى الصلاح وضرورة أن يستعين بالله في نيله؛ إذ كرّر كلمة (صالح) ثلاث مرات وكلمة (الصالحين) مرتين وهي جمع للمفردة (صالح)، وتدلّ على المتّصفين بالصلاح فهو يريد من ربه أن يلحقه بالصالحين الماضين ويجعله أحد الصالحين الباقين ويستعين بالله على صالح ما أعطاه ليحافظ عليه، وفي ذلك الإحاطة التامّة بألوان الصلاح التي يحبّ أن يتّصف بها لتشمل أحواله المختلفة واستعمل كلمة (أحسنه) ليكون اختتام الأعمال الصالحة بأحسن الأشكال ليعضّد معنى الصلاح الذي أكَّده طالبا من الله أن لايرده إلى السوء الذي استنقذه منه أي : أن يرجعه للصلاح وهذا تأكيد آخر على هذا المعنى الذي يحمل فحوى وجود الناس على الأرض .

وهذا الصلاح يكتمل بحسن الإيمان؛ كان ما أردفه الإمام عليه السلام لهذه الفقرة مساندا لدلالتها إذ يقول :

((اَللّـهُمَّ اِنّي اَسْاَلُكَ إيماناً لا اَجَلَ لَهُ دُونَ لِقائِكَ، اَحْيِني ما اَحْيَيْتَني عَلَيْهِ اَللّـهُمَّ اِنّي اَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْفَشَلِ وَالْهَمِّ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْغَفْلَةِ وَالْقَسْوَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ وَالْفاقَةِ وَكُلِّ بَلِيَّة، وَالْفَواحِشِ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ))[٤٨]

فقد سأل الله الإيمان الذي لا أجل له دون لقاء الله .. أي هو السبيل للمحافظة على الصلاح

واستعاذ من (الْكَسَلِ وَالْفَشَلِ وَالْهَمِّ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْغَفْلَةِ وَالْقَسْوَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ وَالْفاقَةِ وَكُلِّ بَلِيَّة، وَالْفَواحِشِ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ) وهذه الصفات التي استعاذ منها هي مثبطات الصلاح ومدمراته، فالاستعاذة منها تعني طلب استمرار الصلاح، وهذا تساند دلالي مهم من خلال نفي المثبطات أي تأكيد المحفِّزات

بنى التساند في دعاء أبي حمزة

لم يكن التساند في دعاء أبي حمزة بسيط البنى، بل تداخلت الأساليب التي اتبعها الإمام عليه السلام مستفيدا من أساليب علوم العربية المتنوعة من نحو وبلاغة ووصف وحوار وتوظيف

٤٧ القمي، ٢١٣.
٤٨ القمي، ٢١٣.

للاقتباس القرآني، وقد تتقارب البنى الواردة فيه من بنى التقابل، ومثال ذلك :

ـ التساند المستفيد من طاقات الجمل الإسمية المتعاطفة ذات الوصف المفصَّل مع تنوع المعاني الرافدة للتساند

المعروف عند البلاغيين أنَّ الجمل الإسمية تدل على الثبوت[٤٩] ؛ لذا حسن أن يستعملها الإمام لزيادة الإشارة إلى ثبات الإنسان على خطئه ؛ للتركيز على كونه خطَّاءً .

وفي هذا النوع من بناء الجمل المتساندة كان المبتدأ هو ضمير المنفصل (أنا) ـ أي العبد ـ والخبر هو الاسم الموصول (الذي)، وقد استعرض الإمام من خلاله أحوال العبد الواصفة لتجَرُّئه وعصيانه وعدم اكتراثه وتفريطه في جنب الله، فيقول :

((اَنَا الَّذي عَلى سَيِّدِهِ اجْتَرى،
اَنَا الَّذي عَصَيْتُ جَبّارَ السَّماءِ،
اَنَا الَّذي اَعْطَيْتُ عَلى مَعاصِي الْجَليلِ الرُّشا،
اَنَا الَّذي حينَ بُشِّرْتُ بِها خَرَجْتُ اِلَيْها اَسْعى،
اَنَا الَّذي اَمْهَلْتَني فَما ارْعَوَيْتُ،
وَسَتَرْتَ عَلَيَّ فَما اسْتَحْيَيْتُ،
وَعَمِلْتُ بِالْمَعاصي فَتَعَدَّيْتُ،
وَاَسْقَطْتَني مِنْ عَيْنِكَ فَما بالَيْتُ))[٥٠]

فكانت الجمل متعاطفة، كلّ واحدة أبرزت جانبا من جوانب التقصير البشري في جنب الله سبحانه.

والملحوظ أنّه في الجملة الأخيرة: (اَنَا الَّذي اَمْهَلْتَني فَما ارْعَوَيْتُ) عُطِفَتْ عليها جمل أخرى حذف فيها المبتدأ وهو الضمير المنفصل (أنا) مع ظهور الجمل الفعلية وهي:

(وَسَتَرْتَ عَلَيَّ فَما اسْتَحْيَيْتُ)
(وَعَمِلْتُ بِالْمَعاصي فَتَعَدَّيْتُ)
(وَاَسْقَطْتَني مِنْ عَيْنِكَ فَما بالَيْتُ)

٤٩ الكافي ،أحمد بن علي بن عبد أبو حامد و السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ط١ (بيروت - لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٣)، ١/ ٢٣٤.
٥٠ القمي، مفاتيح الجنان، ٢٠٨.

المعطوفة على جملة صلة الموصول السابقة :

(اَنَا الَّذي اَمْهَلْتَني فَما ارْعَوَيْتُ)

إبرازا لأهميّة مهيمنة الحذف الأسلوبية لتجعل المعاني مركَّزة متّحدة مبينة لألوان تفريط العبد، وما ذاك إلّا لمعرفة المتلقّي بمن هو المقصّر، وتركّز ذلك بعد خمس مرّات من تكراره في الجمل السابقة المتشابهة البناء .

❋ الإفادة من بناء الجمل الفعلية ذات الأسلوب الشرطي مع الوصف الدقيق

للجملة الفعلية طاقات دلالية هائلة، ولاسيّما إذا أفادت من أسلوب الشرط، وهذا تشابه آخر في البنية مع إستراتيجية التقابل، وقد استثمر الإمام عليه السلام هذه الطاقات في أكثر من موضع في هذا الدعاء، وممّا ورد فيه في باب التساند قوله صلى الله عليه وآله: ((اِلهي لَوْ قَرَنْتَني بِالأصْفادِ، وَمَنَعْتَني سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأَشْهادِ، وَدَلَلْتَ عَلى فَضايِحي عُيُونَ الْعِبادِ، وَاَمَرْتَ بي اِلَى النّارِ، وَحُلْتَ بَيْني وَبَيْنَ الأَبْرارِ، ما قَطَعْتُ رَجائي مِنْكَ وَما صَرَفْتُ تَأميلي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبي))[٥١]

فقد أفاد ممّا يمكن أن يمنحه الشرط للسياق من دلالة في قوله :(لَوْ قَرَنْتَني بِالأصْفادِ) ولم يأتِ مباشرة بجملة جواب الشرط بل أفاد من أسلوب الإطناب لتفصيل ما يمكن أن يفعله الله به إذ قال : (وَمَنَعْتَني سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأَشْهادِ، وَدَلَلْتَ عَلى فَضايِحي عُيُونَ الْعِبادِ، وَاَمَرْتَ بي اِلَى النّارِ، وَحُلْتَ بَيْني وَبَيْنَ الأَبْرارِ) وهذا ما يمكن أن يثير حسرة العبد ويقطع رجاءه في الغفران، ويضعف أمله ويقلّل حبّه، لكنّه مع الإمام أمر مختلف حيث قال : (ما قَطَعْتُ رَجائي مِنْكَ وَما صَرَفْتُ تَأميلي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبي)؛ فقد شحن الإطناب السياق بتصوير مكثّف يبيّن اختلاف ردّة فعل الإمام عن غيره نتيجة حبّه لله الذي لا يمكن أن تشوبه شائبة وشدّة تعلّقه به ورضاه بما سيفعله به، فجعله ذلك أكثر تمسّكا مهما كانت النتائج .

والإمام عليه السلام هنا لسان حال العابدين ؛ لأنّه كان يرسل رسالة للناس يعلمهم فيها كيف يتوسلون إلى الله تعالى ولا يقنطون من رحمته .

---

٥١ القمي، ٢٠٩.

***ـ دخـول التسـاند في جمـل فعليـة اسـتفهامية وحاليـة مفصَّلـة الوصـف مـع الإفـادة مـن طاقـات الاقتبـاس القـرآني :**

وفي هـذا النـوع تظهـر إفـادة الإمـام ﷺ مـن بنـاء الجمـل الفعليـة، ويظهـر فيهـا رسـم للمشـهد حيـث يكـون الوصـف في أعـلى مسـتوياته مسـتفيدا مـن أسـاليب الطلـب، وهـي الاسـتفهام هنـا ومـن أنـواع الحـال مـع الإفـادة مـن الوصـف القـرآني مـن طريـق الاقتبـاس النـصّي فيقـول ﷺ:

((، فَمَـنْ يَكُـونُ أَسْـوَأَ حـالاً مِنّـي إنْ أَنَـا نُقِلْـتُ عَـلى مِثْـلِ حـالِي إلى قَـبْرٍ لَمْ أُمَهِّـدْهُ لِرَقْـدَتي، وَلَمْ أَفْرُشْـهُ بِالْعَمَـلِ الصّالِـحِ لِضَجْعَتـي، وَمـالي لا أَبْكـي وَلا أَدْري إلى مـا يَكُـونُ مَصـيري، وَأَرى نَفْـسي تُخادِعُـني، وَأَيّامـي تُخاتِلُـني، وَقَـدْ خَفَقَـتْ عِنْـدَ رَأسي أَجْنِحَـةُ الْمَـوْتِ، فَـمالي لا أَبْكـي، أَبْكـي لِخُـرُوجِ نَفْـسي، أَبْكـي لِظُلْمَـةِ قَـبْري، أَبْكـي لِضيـقِ لَحْـدي، أَبْكـي لِسُـؤالِ مُنْكَـرٍ وَنَكـيرٍ إيّـايَ، أَبْكـي لِخُرُوجـي مِـنْ قَـبْري عُرْيانـاً ذَليـلاً حامِـلاً ثِقْـلي عَـلى ظَهْـري، أَنْظُـرُ مَـرَّةً عَـنْ يَميني وَأُخْـرى عَـنْ شِـمالي، إذِ الْخَلائِـقُ في شَـأنٍ غَـيْرِ شَـأني ﴿ لِـكُلِّ امْـرِئٍ مِنْهُـمْ يَوْمَئِـذٍ شَـأنٌ يُغْنيـهِ * وُجـوهٌ يَوْمَئِـذٍ مُسْـفِرَةٌ * ضاحِكَـةٌ مُسْـتَبْشِرَةٌ * وَوُجـوهٌ يَوْمَئِـذٍ عَلَيْهـا غَـبَرَةٌ * تَرْهَقُهـا قَـتَرَةٌ ﴾ وَذِلَّـةٌ))[٥٢]

فقـد أفـاض الإمـام ﷺ في رسـم مشـهد مفصّـل للإنسـان الآسـف عـلى عـدم تقديمـه الأعـمال المنجيـة مـن العقـاب وليـس لـه مـن حيلـة إلّا البـكاء مسـتفيدا مـن أسـاليب تركيبيـة شـتّى أوّلهـا وأكثرهـا هيمنـة الاسـتفهام، فقـد ورد مرتبطـا بأسـلوب الـشرط مـع تفصيـل الوصـف في قولـه :

(فَمَـنْ يَكُـونُ أَسْـوَأَ حـالاً مِنّـي ؟ إنْ أَنَـا نُقِلْـتُ عَـلى مِثْـلِ حـالِي إلى قَـبْرٍ لَمْ أُمَهِّـدْهُ لِرَقْـدَتي، وَلَمْ أَفْرُشْـهُ بِالْعَمَـلِ الصّالِـحِ لِضَجْعَتـي) فالاسـتفهام في (مـن يكـون أسـوأ حـالا منـي ؟) والـشرط بـ (إن) المرتبـط بالاسـتفهام مسـتفيدا مـن طاقـات الإيحـاء البلاغيـة في اسـتعارتين مكنيتـين همـا ((لَمْ أُمَهِّـدْهُ لِرَقْـدَتي، وَلَمْ أَفْرُشْـهُ بِالْعَمَـلِ الصّالِـحِ لِضَجْعَتـي))

وما أثمر عنهما من تجسيد جعل القبر مهدا للرقدة / والعمل الصالح فراشا للضجعة

ثـمَّ عـاد للاسـتفهام الـذي عطـف عليـه جمـلا متنوعـة بقولـه : ((وَمـالي لا أَبْكـي ؟ وَلا أَدْري إلى مـا يَكُـونُ مَصـيري، وَأَرى نَفْـسي تُخادِعُـني، وَأَيّامـي تُخاتِلُـني، وَقَـدْ خَفَقَـتْ عِنْـدَ رَأسي أَجْنِحَـةُ الْمَـوْتِ)) فقـد صـورت الجمـل المعطوفـة حالـة القلـق التـي لازمـت العبـد، وممّـا زاد مـن طاقـات

٥٢ القمي، ٢٠٩.

التصوير الاستعارات الواردة في ((أرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني، وقد خفقت فوق رأسي أجنحة الموت)) وبان التشخيص في (تخادعني، وتخاتلني)، والتجسيم في (أجنحة الموت) ممّا أعطى المشهد حياة وحركة توازي حركة مشاعر الخشية من الله والبكاء على التفريط في جنب الله .

وأفاد ممّا أسبغه التكرار للفعل (أبكي) سبع مرات من تكريس لدلالة البكاء، وجعل السبب مختلفا في كلّ مرّة يرد فيها هذا الفعل، وهذا برأيي زاد الدعاء تأثيرا فعندما تكثر الخشية من الله في الدعاء تكون الدموع دليلا على الالتحام المطلوب لصلة العبد بربّه، وهذه من أوّل غايات الدعاء بمختلف أساليبه.

وقد وصل التصوير أوجه في المشهد المهيب لذلك الخروج من خلال الإفادة من أسلوب الحال بأنواعه فمرّة يكون الحال كلمة واحدة في ((عُرْياناً / ذَليلاً /

أو كلمة متّصلة بوصفها مثل (حامِلاً) وهي اسم فاعل عامل وقع حالا مع ذكر متعلقه وهو المفعول به وشبه الجملة المبَيِّنة له في: (ثِقْلي عَلى ظَهْري) إيصالا لشدّة ذلك الحمل؛ لأنّه ثقل الأوزار، وهو أثقل بكثير من ثقل الحمل المادّي.

أو جملة الحال الفعلية الموضّحة لشمول نظر الإمام ولا أحد ينتبه له :

(اَنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يَميني وَاُخْرى عَنْ شِمالي). المرتبطة معنويا بجملة :

(اِذِ الْخَلائِقِ في شَأن غَيْرِ شَأني)أي في حال كون الخلائق مشغولة بشؤون أخرى غير شأنه مستفيدا في تفصيل هذه الشؤون من الاقتباس القرآني ولاسيّما أنَّ السور المكيّة حافلة بذكر مشاهد القيامة، ومن أكثرها وصفاً لذلك الانشغال نتيجة هول المفزع تلك الآية التي اقتبسها نصًّا :

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذ شَأنٌ يُغْنيهِ * وُجوهٌ يَوْمَئِذ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجوهٌ يَوْمَئِذ عَلَيْها غَبَرَةٌ * تَرْهَقُها قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٧ ـ ٤١] ، فالإمام عليه السلام في ذلك الهول رأى الناس يومئذ صنفين كما وصفتهم الآية الكريمة : أصحاب الوجوه المستبشرة وأصحاب الوجوه المغبرَّة، كلّ ذلك رسم مشهداً متحرّكاً من أبدع ما يكون تصويرا لهول ذلك اليوم وأصناف الناس فيه .

المبحث الثالث : التقابل والتساند معاً

مثلما ورد التقابل وحده والتساند وحده، وردا معاً يرفد أحدهما طاقات الآخر الدلالية. من غير أن يخرجا عن الأطر التي كانت في كليهما وسأختصر في إيراد البنى تجنّبا للإطالة.

ومن ذلك

***تناوب التساند والتقابل في النصّ الواحد إثراء للدلالة**

فمّا ورد من ذلك قوله : ((وَلَكَ الْحَمْدُ عَلى بَسْطِ لِساني، اَفَبِلِساني هذَا الْكالِّ اَشْكُرُكَ، اَمْ بِغايَةِ جُهْدي في عَمَلي اُرْضيكَ، وَما قَدْرُ لِساني يا رَبِّ في جَنْبِ شُكْرِكَ، وَما قَدْرُ عَمَلي في جَنْبِ نِعَمِكَ وَاِحْسانِكَ، سَيِّدي اِلَيْكَ رَغْبَتي، وَاِلَيْكَ رَهْبَتي، وَاِلَيْكَ تَأميلي،، وَلَكَ خالِصُ رَجائي وَخَوْفي، اِلهي اِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ اَوْلى مِنْكَ بِالْعَفْوِ، وَاِنْ عَذَّبْتَ فَمَنْ اَعْدَلُ مِنْكَ فِي الْحُكْمِ، اِلهي حَقِّقْ رَجائي، وَآمِنْ خَوْفي، فَاِنَّ كَثْرَةَ ذُنُوبي لا اَرْجُو فيها إلاّ عَفْوُكَ، اِلهي اَنْتَ الَّذي تُفيضُ سَيْبَكَ عَلى مَنْ لا يَسْأَلُكَ وَعَلَى الْجاحِدينَ بِرُبُوبِيَّتِكَ، فَكَيْفَ سَيِّدي بِمَنْ سَأَلَكَ وَاَيْقَنَ اَنَّ الْخَلْقَ لَكَ، وَالأَمْرَ اِلَيْكَ، تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ يا رَبَّ الْعالَمينَ))[٥٣]

فقد بدأ بتساند في جمل الحمد مستفيدا من أسلوب الطلب الاستفهام الذي تتالى ثلاث مرات ليرفده بتقابل في قوله عليه السلام:

((أفَبِلِساني هذَا الْكالِّ اَشْكُرُكَ، اَمْ بِغايَةِ جُهْدي في عَمَلي اُرْضيكَ، ؟

وَما قَدْرُ لِساني يا رَبِّ في جَنْبِ شُكْرِكَ؟

وَما قَدْرُ عَمَلي في جَنْبِ نِعَمِكَ وَاِحْسانِكَ؟))

فكان الاستفهام الأوّل عبارة عن طرفين أحدهما ما قبل(أم) المعادلة والآخر ما بعدها، وكلاهما دال على الكلل والنقص وغاية الجهد ضعيفة والعمل الذي يرضي الله لابد أن يكون كبيرا موازيا للعطاء غير المحدود، وشكر الله يحتاج جزالة وقوة لكثرته، وقدر لسان الإنسان صغير وجنب الشكر للنعماء لابد أن يكون كبيرا، وقدر العمل قليل من الإنسان وجنب النعم والإحسان كبير من الله سبحانه.

٥٣ القمي، ٢١١.

بعدها أفاد من أسلوب التقديم لأشباه الجمل الواقعة أخبارا مقدمة على المبتدآت المؤخرة التي جاءت بعدها مباشرةً في :

((اِلَيْكَ رَغْبَتي،/ وَاِلَيْكَ رَهْبَتي/ ، وَاِلَيْكَ تَأميلي/ وَلَكَ خالِصُ رَجائي وَخَوْفي))

بعدها رفد السياق بتقابلات كان أسلوب الشرط أساسا في بنائها :

((اِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ اَوْلى مِنْكَ بِالْعَفْوِ/ وَاِنْ عَذَّبْتَ فَمَنْ اَعْدَلُ مِنْكَ فِي الْحُكْمِ))، بعدها أورد تساندات أخرى أفادت من أسلوب الأمر، بفعلي أمر هما (حقق وآمن)، في قوله عليه السلام: اِلهي حَقِّقْ رَجائي/ وَآمِنْ خَوْفي، وأردفها بإفادة من أسلوب التوكيد بـ(إنَّ) الذي جاء في طياته أسلوب الحصر في قوله :

((فَاِنَّ كَثْرَةَ ذُنُوبي لا اَرْجُو فيها إلاّ عَفْوُكَ))، واختتم هذا النص بالإفادة من طباق السلب الذي لم يقصد منه التقابل بل أفاد الشمول والتماثل في قوله : ((اِلهي اَنْتَ الَّذي تُفيضُ سَيْبَكَ عَلى مَنْ لا يَسْأَلُكَ وَعَلَى الْجاحِدينَ بِرُبُوبِيَّتِكَ، فَكَيْفَ سَيِّدي بِمَنْ سَأَلَكَ وَاَيْقَنَ اَنَّ الْخَلْقَ لَكَ، وَالأَمْرَ اِلَيْكَ، تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ يا رَبَّ الْعالَمينَ)) فقد ورد في النصّ (لا يسألك ويسألك) ليحيط المتلقّي بأنَّ الله يعطي لمن لم يسأل فكيف لا يجزل العطاء لمن يسأل. وفي ذلك تكريس لمعنى عطاء الله غير المحدود الذي شمل الفئات المتقابلة.

***التقابل والتساند بالإفادة من طاقات الحجاج**

إنَّ الله يحبُّ أن يرى توسّل المخلوق به وحبّه له وإفادته ممّا فتح الله له من أبواب يستطيع أن يلجها ليصلَ إلى أفضل ما يعطي الخالق، ومن هذه الأبواب التي ينبغي الإفادة منها الحجاج، وقد عُرفَ عن أهل البيت قوة الحجّة وعظيم توظيفها فكان ذلك واضحا في مخاطبة الخالق والاستدلال بالحجج للحصول على عطاياه الجزيلة، قال الإمام عليه السلام:

((اَللّـهُمَّ اِنَّكَ اَنْزَلْتَ في كِتابِكَ اَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمْنا، وَقَدْ ظَلَمَنا اَنْفُسَنا فَاعْفُ عَنّا فَاِنَّكَ اَوْلى بِذلِكَ مِنّا، وَاَمَرْتَنا اَنْ لا نَرُدَّ سائِلاً عَنْ اَبْوابِنا وَقَدْ جِئْتُكَ سائِلاً فَلا تَرُدَّني إلاّ بِقَضاءِ حاجَتي))[٥٤] *

٥٤ القمي، ٢١٣.

* والآيات في العفو كثيرة منها : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور ٢٢]

فانتقل من عفو الإنسان عمَّن ظلمه في الدنيا إلى عفو الله عمن ظلم نفسه، والتذكير بما أمر الله تعالى من عدم ردِّ السائلين، والانتقال من سائل الإنسان للإنسان إلى سائل الإنسان للخالق الحنَّان، فياله من عظيم توظيف للحجاج في استدرار عطف الله تعالى والانطلاق من حيث أمر الله تعالى للوصول إلى ما يرتجيه العبد منه سبحانه .

ـ وممّا ورد من ذلك أيضاً في إطار توسُّل العبد بربه لحبِّه له ولإيمانه به، قوله ﷺ:

((فَلا تُوحِشِ اسْتيناسَ ايماني، وَلا تَجْعَلْ ثَوابي ثَوابَ مَنْ عَبَدَ سِواكَ، فَإِنَّ قَوْماً آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ لِيَحْقِنُوا بِهِ دِماءَهُمْ فَادْرَكُوا ما اَمَّلُوا، وَإِنّا آمّنا بِكَ بِأَلْسِنَتِنا وَقُلُوبِنا لِتَعْفُوَ عَنّا،، وَلا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنا،

•اِلى مَنْ يَذْهَبُ الْعَبْدُ إلاّ اِلى مَوْلاهُ،

• وَاِلى مَنْ يَلْتَجِئُ الْمَخْلُوقُ إلاّ اِلى خالِقِهِ))[٥٥]

فبدأ ببنية تقابل في طيات تماثل في قوله :

((فَلا تُوحِشِ اسْتيناسَ إيماني،

وَلا تَجْعَلْ ثَوابي ثَوابَ مَنْ عَبَدَ سِواكَ،

فالنهي المجازيّ دخل فيه التقابل إذ طلب فيه ألّا تفسد الوحشة أنس الإيمان

وألّا يتساوى عابد الله حقّ عبادته مع من عبد سواه

والتماثل في أنَّ من أوحش استئناس إيمانه هو ذاته من تساوت عبادته لخالقه مع عبادة من عبد غير الله .

***الإفادة من الحجاج والاقتباس القرآني**

ـ حين يبيِّن الإمام ﷺ عناية الخالق بالعباد يستفيد مما فَسَحُه الله تعالى في القرآن الكريم من مجال للتقرّب إلى الله سبحانه كقوله ﷺ:

((اَللّـهُمَّ اَنْتَ الْقائِلُ وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَوَعْدُكَ صِدْقٌ (وَاسْأَلوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ)(اِنَ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحيماً)، وَلَيْسَ مِنْ صِفاتِكَ يا سَيّدي اِنْ تَأمُرَ بِالسُّؤالِ وَتَمْنَعَ الْعَطِيَّةَ، وَاَنْتَ الْمَنّانُ بِالْعَطِيّاتِ

٥٥ القمي، ٢٠٩.

عَلى اَهْلِ مَمْلَكَتِكَ، وَالْعائِدُ عَلَيْهِمْ بِتَحَنُّنِ رَأفَتِكَ))[٥٦] فقد بدأ بالتساند في الدعاء بـ (اللهم) موظِّفا ما قاله الله تعالى منطلقا من سمة القائل العظيم إلى وصف ماهيَّة قوله بأنه الحق وكمال وعده بأنه الصدق .ثم انتقل للتقابل وكان مقصده بيان إحاطة العناية الإلهية بالعباد، مستعينا بالاقتباس القرآني النصِّي في (وَاسْأَلُوا اللهَّ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [النساء٣٢] الذي أمر الله فيه عباده بالسؤال ؛ ليدخل بعده الإمام عليه السلام في حجاج من أجمل ما يكون، فلا يمكن أن يأمر سبحانه بالسؤال ويمنع العطية، وقد أكَّد ذلك في الجمل الحالية الواردة بعد التقابل مباشرة وقد أكَّدت وجوب حصول عطايا الله ونزول رأفته بهم، وهي :

(وَاَنْتَ الْمَنّانُ بِالْعَطِيّاتِ عَلى اَهْلِ مَمْلَكَتِكَ)

و (وَالْعائِدُ عَلَيْهِمْ بِتَحَنُّنِ رَأفَتِكَ)

لقد اتّضحت قدرة الإمام على توظيف وسائل الإقناع الحجاجية مع الإفادة من الاقتباس القرآني في توليف بلاغي متآزر كشف عن أسلوب فريد في الدعاء قادر على استمالة الأرواح وتدريبها وتهذيبها في أجمل تأديب لمخاطبة الخالق سبحانه واستمالته بما يبين تعلّق العابد بالمعبود سبحانه .

٥٦ القمي، ٢٠٤.

الخاتِمــة

بعد هذه الرحلة في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي، وتطبيق إستراتيجيتَي التقابل والتماثل لابدَّ للبحث من نتائج أفرزها طول التأمّل فيه والتطبيق في فقراته، وكان من أبرزها :

ـ من الضروري التجديد في البلاغة واجتراح المصطلحات وتطبيقها على أن يكون هذا التجديد غير ناسف للأساليب البلاغية المنتجة كالتقابل، فالمعنى الذي عرف به من التعبير عن الأشياء والحالات المتضادّة في مكان واحد له أثره الكبير ومجالاته المتنوعة في إبراز بلاغة المبدعين وعلو شأن النصوص الإبداعية وغناها، ومن هذا المنطلق لا يمكن تغيير مفهومه وجعله مضاهيا لمفهوم البلاغة الشامل لكلِّ الفنون. فخصوصيته تمنح وجوده في النصوص إيحاءات دلالية تضمحل بتغيير دلالاته.

للإمام زين العابدين علي بن الحسين ﷺ لغة متميزة بروعة بلاغتها وعظيم تنوع أساليبها وظَّفها في بناء الاستراتيجيتين، ونجد فيها ألوانا من المهيمنات الأسلوبية التي تنم بتمكُّن من ناصية اللُّغة، ومعجم أدبي عزَّ نظيره عند البلغاء، وقدرة كبيرة في التحكّم بأنواع الأنساق البلاغية التي تستوعبه .

امتلأ دعاء أبي حمزة بألوان فريدة من المناجاة عكست شخصية الإمام المتبتلة وجمال لغته الثرَّة المختارة من الأساليب ما يناسب المقام المعبَّر عنه، ففاض الدعاء رقّة وعذوبة تناسب مقام الخطاب مع الله سبحانه .

أراد الإمام زين العابدين ﷺ أن ينطلق من دعاء أبي حمزة لتربية العباد على التقرُّب من الله، وكانت خير وسيلة لإدراك هذه الغاية استعمال التضادّ الذي تمكَّن الإمام بوساطته من الإحاطة بذكر أحوال المخلوق ذي الأوصاف السلبية، بمقابل ذكر أحوال الخالق العظيم الذي يتّسم بالكمال والعفو والرحمة، مؤكّداً ضرورة الارتباط بالله في الأحوال كلها

لقد برزت في دعاء أبي حمزة إستراتيجية التقابل وحدها وإستراتيجية التماثل وحدها ومجيئهما معاً، وكان ذلك المجيء مفعما بالإيحاء رافدا للمعاني بحسب حاجة السياقات لذلك .

لم يردْ في هذا الدعاء التقابل المفرد، إنَّما ورد التقابل بالجمل، وجاء على أشكال : فمنه الجمل القليلة ومنه الجمل الكثيرة، ومنه ما كانت الجمل الإسمية عماده، ومنه ما كانت الجمل الفعلية عماده. ودخولها في سياقات متنوعة وتراكيب متعدّدة تناسب تنوع أغراضه وتعدد مراميه.

أبانت التقابلات والتساندات عن معانٍ عدّة دارت في ثنائيات أهمّها يعتمد التضادّ على مجموعة

متتالية من التقابلات تبيِّن عظمة الخالق وصغر المخلوق. وكمال الخالق ونقص المخلوق وعطاء الخالق وبخل المخلوق .

لم يكن التقابل مفضياً الى التخالف فقط، وإنّما قد يأتي التقابل في نسق تماثل غايته الشمول والإحاطة ولاسيما عند بيان شمول عطاء الله للناس جميعا من سأله ومن لم يسأله .

إنَّ للتساند أهمية كبيرة في رفد السياقات التي يرد فيها ولاسيّما في أدب الدعاء، وقد رأينا تنوّع أساليب التساند في دعاء أبي حمزة الذي أفاد من علوم العربية كلّها ولاسيّما أساليب النحو لتعكس أثر التركيب في إثراء الدلالة، ومن علوم البلاغة الثلاثة ليكون التأثير لفظيا وتنغيميّا ومعنوياً.

اتّضح أثر أساليب الطلب المتعدّدة والشرط والتوكيد والتكرار، وقد تفنن الإمام عليه السلام في إدخالها في سياقات التقابل والتساند؛ لتفصح عن معانٍ ما كانت لتؤثر لولا حسن اتنقائها ووضعها في موضعها الصحيح.

ـ حين يكون التضادّ مبينا للعناية الإلهية بالعبد يظهر التضادّ قليلا ويغلب التساند على السياق ليكشف عن استمرار العناية الإلهية بالعبد من الصغر إلى الكبر ومن الدنيا إلى الآخرة ولم يقصد به التخالف إنّما قصد به التماثل.

المصادر:

القرآن الكريم.
أبو يعلى ،أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي. مسند أبي يعلى. تحقيق حسين سليم أسد. د.ط. دمشق - بيروت: دار المأمون للتراث، د.ت.
الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. ط ٤. مصر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٦.
الريشهري، محمد. ميزان الحكمة. ط١. لبنان: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١.
السجلماسي، لأبي محمد القاسم. المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. تقديم وتحقيق علال الغازي. ط١. المغرب: مكتبة المعارف، ١٩٨٠.
الشامي، الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي. المعجم الأوسط. تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد أبو معاذ. القاهرة: دار الحرمين للطباعة، د.ت.
العاملي، محمد بن حسن. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. ط١. قم: مؤسسة آل البيت ﷺ، ١٤٠٩.
العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران. كتاب الصناعتين. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط١. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤١٩.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي و ابراهيم السامرّائي، د.ت.
القمي، الشيخ عباس. مفاتيح الجنان. تحقيق السيد محمد رضا النوري النجفي. ط١. بيروت - لبنان: دار المرتضى للطباعة والنشر، ٢٠١٩.
الكافي، أحمد بن علي بن عبد أبو حامد، و بهاء الدين السبكي. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. ط١. بيروت - لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٣.
المصري، أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين. اتفاق المباني وافتراق المعاني. تحقيق يحيى عبدالرؤوف جبر. ط١. عمان: دار عمار، ١٩٨٥.
المعتز، عبد الله بن. البديع. تحقيق اغناطيوس كراتشكوفسكي. د.ط. بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٧٩.
النيسابوري، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم. المُسْتَدرَك على الصحيحين. د.ط. بيروت - لبنان: دار المعرفة، د.ت.
بازي، محمد. نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب. ط١. المغرب: دار الأمان للنشر، ٢٠١٣.
بن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان. البرهان في وجوه البيان. تحقيق مطلوب،أحمد و خديجة الحديثي. ط١. بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٧.
بن طاووس، السيد رضيّ الدين علي بن موسى. المجتنى من الدعاء المجتبى. تحقيق صفاء الدين البصري. د.ط. قم المقدسة: دار الولاء، د.ت.
ثعلب، أحمد بن يحيى. قواعد الشعر. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. ط ١. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٤٨.
رجوان، مصطفى. في بلاغة الخطاب من بديع اللفظ إلى بديع التأويل. تقديم محمد بازي. ط ٢. عمّان ـ الأردن: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠.
عتيق، عبد العزيز. علم المعاني. ط ١. بيروت - لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
قدامة بن جعفر. نقد الشعر. ط١. قسطنطينية: مطبعة الجوائب، ١٣٠٢.

References:

Holy Quran

Abu Ya'la، Ahmad bin Ali bin al-Muthanna bin Yahya bin Isa bin Hilal al-Tamimi al-Mawsili. Musnad Abi Ya'la. Edited by Hussein Salim Asad. No edition. Damascus - Beirut: Dar al-Mamun li al-Turath، no date.

Al-Amali، Muhammad bin Hassan. Tafsil Wasail al-Shia ila Tahsil Masail al-Shariah. 1st edition. Qom: Muassasat Al al-Bayt alaihim al-Salam، 1409 AH.

Al-Askari، Abu Hilal al-Hasan bin Abdullah bin Sahl bin Saeed bin Yahya bin Mahran. Kitab al-Sina'atayn. Edited by Ali Muhammad al-Bajawi and Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. 1st edition. Beirut: Al-Maktaba al-Asriyya li al-Tiba'a wa al-Nashr، 1419 AH.

Al-Farahidi، Al-Khalil bin Ahmad. Kitab al-Ayn. Edited by Mahdi al-Makhzoumi and Ibrahim al-Samarra'i، no date.

Al-Jurjani، Al-Qadi Ali bin Abdul Aziz. Al-Wasatah Bayna al-Mutanabbi wa Khusumihi. Edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim and Ali Muhammad al-Bajawi. 4th edition. Egypt: Isa al-Babi al-Halabi wa Shurakah، 1966.

Al-Kafi، Ahmad bin Ali bin Abd Abu Hamid، and Baha al-Din al-Subki. Arus al-Afrah fi Sharh Talkhis al-Miftah. 1st edition. Beirut - Lebanon: Al-Maktaba al-Asriyya li al-Tiba'a wa al-Nashr، 2003.

Al-Misri، Abu al-Rabee Sulaiman bin Binnin bin Khalaf bin Awad Taqi al-Din. Itifaqa al-Mabani wa Ifteeraqa al-Ma'ani. Edited by Yahya Abdelraouf Jabr. 1st edition. Amman: Dar Ammar، 1985.

Al-Mu'taz، Abdullah bin. Al-Badi'. Edited by Ignatius Krachkovsky. No edition. Baghdad: Maktabat al-Muthanna، 1979.

Al-Naysaburi، by Imam Al-Hafiz Abu Abdullah Al-Hakim. Al-Mustadrak ala al-Sahihayn. No edition. Beirut - Lebanon: Dar al-Ma'rifa، no date.

Al-Qummi، Al-Shaikh Abbas. Mafatih al-Jinan. Edited by Al-Sayyid Muhammad Reza al-Nuri al-Najafi. 1st edition. Beirut - Lebanon: Dar al-Murtaza li al-Tiba'a wa al-Nashr، 2019.

Al-Raysahri، Muhammad. Mizan al-Hikmah. 1st edition. Lebanon: Dar Ihya al-Turath al-Arabi، 2001.

Al-Sajlmasi، Abu Muhammad al-Qasim. Al-Munazza' al-Badi' fi Tajnis Asalib al-Badi'. Introduced and edited by Allal al-Ghazali. 1st edi-

tion. Morocco: Maktabat al-Ma'arif، 1980.

Al-Shami، Al-Tabarani; Sulaiman bin Ahmad bin Ayyub bin Matir al-Lakhami. Al-Mu'jam al-Awsat. Edited by Tariq bin Awad Allah bin Muhammad Abu Mu'adh. Cairo: Dar al-Haramayn li al-Tiba'ah، no date.

Atiq، Abdul Aziz. Ilm al-Ma'ani. 1st edition. Beirut - Lebanon: Dar al-Nahda al-Arabiyya li al-Tiba'a wa al-Nashr wa al-Tawzi'، 2009.

Bazi، Muhammad. Nazariyyat al-Ta'wil al-Taqabuli Muqaddimat li Ma'rifah Badila bil Nass wal Khitab. 1st edition. Morocco: Dar al-Aman li al-Nashr، 2013.

Ibn Tawus، Al-Sayyid Radi al-Din Ali bin Musa. Al-Muhaj al-Min al-Du'a' al-Mujtaba. Edited by Safa al-Din al-Basri. No edition. Qom: Dar al-Wila، no date.

Ibn Wahb، Abu al-Husain Isaaq bin Ibrahim bin Sulaiman. Al-Burhan fi Wujuh al-Bayan. Edited by Mustafa Ahmad and Khadija al-Hadithi. 1st edition. Baghdad: Baghdad University، 1967.

Qudama bin Ja'far. Naqd al-Shi'r. 1st edition. Constantinople: Matba'at al-Jawa'ib، 1302 AH.

Rajwan، Mustafa. Fi Balaghat al-Khitab min Badi' al-Lafdh ila Badi' al-Ta'wil. Introduced by Muhammad Bazi. 2nd edition. Amman - Jordan: Dar Kunuz al-Ma'rifa al-Ilmiyya li al-Nashr wa al-Tawzi'، 2020.

Tha'alab، Ahmad bin Yahya. Qawa'id al-Shi'r. Edited by Muhammad Abdel Moneim Khafagi. 1st edition. Egypt: Mustafa al-Babi al-Halabi wa Awladuhu، 1948.